

هربرت كلايد لويس

سقوط

جنتلمان



رواية

ترجمة: إيناس التركي



هربرت كلايد لويس

سقوط جنتلمان

رواية

ترجمتها عن الإنجليزية
إيناس التركي





alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥

العنوان الأصلي: *Gentleman Overboard*

copyright © Herbert Clyde Lewis, 1937

Introduction copyright © George Szirtes, 2021

Afterword copyright © Brad Bigelow, 2021

الاقْتباسات من رسائل هربرت كلايد لويس ورسائل مايكل لويس الإلكترونية بإذن من مايكل لويس.
الاقْتباس من «لست ألوح بل أغرق» لستيفي سميث بإذن من فاير أند فاير المحدودة ونيو دايركشنز للنشر.

الاقْتباس من «الاستماع إلى الأشخاص المقفودين» لدينيس رايلي بإذن من دينيس رايلي.

حقوق الترجمة © إيناس التركي

جميع الحقوق الفكرية محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشراءكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة
من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار
في نشر الكتب التي تعجبكم.

سقوط جننلمان: رواية / هربرت كلايد لويس؛ ترجمتها عن الإنجليزية إيناس التركي - القاهرة: الكرمة للنشر،
٢٠٢٥.

تدمك: 9789779603438

١- القصص الأمريكية.

أ- التركي، إيناس (مترجمة).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٣٦٤٤ / ٢٠٢٥

تصميم الغلاف: أحمد فرج

تقديم: بقلم جورج سيرتش

سقوط جنتلمان

هربرت كلايد لويس وإنتقاذ جنتلمان من السقوط:

بقلم يراد بيجلو

ترجمات الكرامة

تقديم

بقلم جورج سيرنثس

يمكن أن يكون الفرق بين الحياة والموت لا شيء أكثر من مجرد بقعة من الشحم. فإما أن تكون بقعة الشحم في المكان الخطأ، وإما أن تكون أنت في المكان الخطأ. يمكن للمرء أن يجد نفسه على الحافة الخارجية للحياة من دون أن يتعمد، مثل هنري بريسنتون ستانديش، بطل رواية هربرت كلايد لويس الصادرة عام ١٩٣٧، «سقوط جنتلمان»، الذي ينزلق ويسقط في المحيط الهادئ. وهو ليس مجرد رجل في البحر، كما تعلم، بل جنتلمان، رجل محترم، رجل مهذب للغاية، متزوج ولديه طفلان، ومقتدر مالياً إلى حد بعيد.

لكن كونك جنتلمان لا يفيد دائماً، ولم يفد ستانديش الذي لم يستطع أن يتحمل التفكير في نفسه بوصفه أقل من شخص متواضع ورصين وغير مندمر كما أعتدته خلفيته أن يكون. إذا استطاع أن يحمل نفسه على الصراخ طلباً للمساعدة، فقد يسمعه أحد، لكن ذلك سيكون محرّجاً إلى حد ما. وفي النهاية يعتقد أنه يجب أن يحاول، لكن لا يخرج أي صوت من فمه، وفي هذه الأثناء تتحرك السفينة ميتعة بثبات.

هناك شيء محتوم في كل هذا. إذا كانت الرصانة هي ما يميزك فيجب ألا تخاطر بالتخلي عنها. وإذا فتحت الباب فيجب عليك التفكير مرتين قبل عبوره. لكن ما الفائدة من فتح الباب إذن؟

يبدو أن هذا هو السؤال الأساسي في «سقوط جنتلمان»، لكن يبقى هناك شيء ما يزعنا بينما ننتظر، ونظّل ننتظر، أن تستدير السفينة وتلتقط ستانديش. إنه شبح الوحدة الوجودية، شبح الكينونة، كما يجد البحار القديم الحال في قصيدة كولريدج:

وحيداً، وحيداً، وحيداً تماماً، تماماً
وحيداً في بحر واسع، واسع

أو كما تقول الشخصية الغارقة في قصيدة ستيفي سميث التي بعنوان «لست ألوح بل أغرق»:

كنتُ بعيداً في البحر، أكثر مما اعتقدتم
ولم أكن ألوح بل أغرق

وفي الوقت نفسه، يتكهن الآخرون:

لا بد أن الجو كان شديد البرودة بالنسبة إليه، حتى إن قلبه
استسلم
هكذا قالوا

كان ستانديش بخير، وقلبه سليماً بما فيه الكفاية. وقد وصل الركاب الآخرون حياتهم، وظلوا يتكهنون بشأن غيابه. لكن قلب مؤلفه، هربرت كلايد لويس، كان قد استسلم بالفعل، في غرفة موحشة في نيويورك عام ١٩٥٠.

بالنسبة إلى كتاب يبدأ بحادث، ثم تتتابع ببساطة نتائجه المباشرة حتى نهايته، فإن «سقوط جنتلمان» عمل بارع من التشويق السردية الذي يتمثل مجال اهتمامه الرئيسي في وعي واحد، وهو وعي ستانديش، وهو ينقل هذا الاهتمام من دون الاكتفاء بالتعمق السهل الذي قد يتوقعه المرء بالنظر إلى الموقف. وعلى الرغم من وجود وعي واحد فقط، فإن هناك أشخاصاً آخرين، كل ما في الأمر أنهم في مكان آخر. يظهر باقي الركاب وطاقم السفينة على نحو واضح ومختصر، ينصرفون، ويتحدثون، ويفكرون، وتستمر حياتهم: حياة عادية تشبه إلى حد كبير حياة ستانديش.

لا يختلف ستانديش عن الآخرين: فهو يظل كما هو، لا هو شخصية في ميلودراما ولا هو بطل في مغامرة خارقة. والحق أنه ليس مميّزاً إلا من ناحية واحدة: أنه في يوم محدد قاده سخط غامض مزعج - خياره الفردي الوحيد الموثوق - إلى أن يكون حيث هو، على متن سفينة في جزء من المحيط الهادئ نادراً ما يتردد عليه أحد، وقدمه على بقعة من الشحم. وفي جوانب أخرى، تظل أفكاره مبتذلة في الأساس.

لكن هذا لا يعني أن القارئ مدعو للسخرية منه. في الواقع، فإن الابتذال بالتحديد هو ما يثير اهتمامنا ويدعونا إلى الشعور بالرفقة، وإن كان عن بُعد بعض الشيء.

هذه المسافة الطفيفة أمر حيوي. فإذا تماهينا مع ستانديش على نحو مبالغ فيه ستتغير طبيعة ما زقّه، وكذلك ستتغير أجواء الكتاب. فالابتذال في نهاية المطاف ليس جزءاً عارضاً منا، بل هو جانب أساسي من جوانب إنسانيتنا. لذا فنحن لا نراه من على متن القارب بأمان - ولا أحد يفعل ذلك. بل نقضي معظم الوقت في البحر معه، كما لو كنا نحن أنفسنا نطوف في نفس المحيط الهادئ الواسع، لكن على مسافة تحافظ على الاحترام. نراه، ولكننا لا نستطيع إنقاذه.

تحاكي حياة لويس نفسه وضع ستانديش. فعلى الرغم من أنه تمتع ببعض النجاح بوصفه كاتباً وصحفيّاً، فإن ذلك لم يكن كافياً قط لإبقائه طافياً. وبحلول وقت وفاته، كان نجمه قد أفل، إلى درجة أنه وجد نفسه في النهاية وحيداً في المحيط الهادئ الداخلي الخاص به، وهناك استسلم قلبه. لا بد أن الجو كان شديد البرودة بالنسبة إليه أيضاً.

بالنظر إلى العدد الهائل من الكتب والمقالات التي تُنشر في العالم الناطق بالإنجليزية في شهر واحد، فمن العجيب أن يبقى أيُّ منها. حيث إن معظمها يختفي، ولا يظهر على السطح مرة أخرى، ليس بالضرورة لأنها رديئة، بل لأنها ظهرت قبل أوانها أو بعد أوانها بأسرع، ولأن الأشخاص المناسبين لم يصادف أن قرأوها أو فكروا في

الحفاظ عليها. فالمحيط عميق كعمق الكون بالنسبة إلى معظمنا، وهناك الكثير من الكتب القيّمة والأرواح التي تترقد في قاعه. وإنه لمشروع نبيل أن ننفذ بعضها، أن ننشلها من الماء ونقول: انظروا مرة أخرى! اقرأوا هذا.

كل الأحكام مؤقتة، مثلها مثل القراء أنفسهم. ها قد خرج ستانديش ولويس من الأعماق. فمن منا لا يشعر بالتية في البحر في وقت أو آخر، وهو يرى مصدر الإنقاذ الوحيد يبحر بعيداً؟

سقوط جنلمان

عندما اندفع هنري بريستون ستانديش وسقط في المحيط الهادئ، كانت الشمس تشرق للتلو في الأفق الشرقي. بدا البحر هادئاً كبحيرة، والطقس معتدلاً، والنسيم رقيقاً، إلى درجة أن المرء لم يكن في وسعه سوى الشعور بالحزن النبيل. وفي هذا الجزء من المحيط الهادئ، كان الشروق يحدث من دون صخب احتفالي، حيث تكتفي الشمس بالاستقرار بفتحتها البرتقالية على الحافة البعيدة من الدائرة العظيمة، وتندفع إلى الأعلى ببطء، لكن بثبات، حتى يتاح للنجوم الخافتة وقت كافٍ لتتلاشى مع الليل. وفي الواقع كان ستانديش يفكر في الفرق الشاسع بين شروق الشمس وغروبها، عندما خطا تلك الخطوة المؤسفة التي أوقعته في الماء المالح. كان يفكر في أن الطبيعة تغدق كل كرمها على مناظر الغروب الرائع، وترسم السحب بفيض من الألوان الباهرة التي لا يمكن لأي إنسان، يتمتع بأي إحساس بالجمال، أن ينساها أبداً، ويتأمل كيف أن الطبيعة بدت، لسبب غير قابل للتفسير، كأنها تتسم بالبخل على نحو غير مألوف في مناظر شروقها فوق هذا المحيط نفسه.

كانت السفينة س. س. «أربيللا» تتقدم على نحو منتظم من هونولولو إلى منطقة القناة، وفي غضون ثمانية أيام وليال أخرى ستصل إلى بالوا. ولم يكن هناك إلا عدد قليل من السفن تسافر على الطريق بين هاواي وبينما: فقط سفينة الركاب الوحيدة هذه كل ثلاثة أسابيع، وسفينة شحن شاردة بين الحين والحين. ونادراً ما كان للسفن الأجنبية سبب للسفر في هذا الطريق، حيث كانت السفن الأمريكية تسيطر على معظم التجارة مع الجزر، وكان الجزء الأكبر من حركة المرور يتوجه إلى سان بيدرو وسان فرانسيسكو وسياتل. وخلال الثلاثة عشر يوماً وليلة التي مكثتها السفينة «أربيللا» في البحر، لم تشاهد إلا سفينة واحدة فقط متجهة في الاتجاه الآخر إلى هاواي. لكن ستانديش لم يرها، حيث كان يقرأ مجلة في مقصورته، إلا أن الضابط الأول، السيد بريسيك، أخبره عنها لاحقاً. كانت سفينة شحن تحمل اسماً إسكندنافياً من نوع ما، نسيه على الفور.

بدت الرحلة بأكملها حتى الآن هادئة بشكل لطيف، إلى درجة أن ستانديش لم يمل من الامتنان لنجم حظه الذي دفعه إلى أن يقرر الإبحار على متن السفينة «أربيللا». ففي حياة مليئة بالهموم والواجبات، كما يليق بمكانته، ستنرز هذه الرحلة دائماً كشيء بسيط وجميل. وإذا لم يختبر الهدوء مرة أخرى فلن يجزع، لأنه بات الآن يعرف أن هناك شيئاً من هذا القبيل. وكان نجمه الجالب للحظ هو نجم الشمال الذي بدا منخفضاً في السماء عند خط العرض هذا، وقد اختاره من بين النجوم الأخرى، لأنه لم يكن يعرف إلا القليل عن النجوم، وكان أسهلها فيما يتعلق بتحديد موقعه وتذكره.

كانت «أربيللا» في الحقيقة سفينة شحن، بها أماكن محدودة للركاب في وسط السفينة، وعلى متنها ثمانية ركاب إضافة إلى ستانديش. كانت هناك السيدة بنسون ذات الخصوبة العالية على نحو ملحوظ، التي أنجبت لزوجها أربعة أطفال فيما يزيد قليلاً على أربع سنوات ونصف السنة. ولم يكن السيد بنسون نفسه حاضراً، لكن نسخته الأربع كانت موجودة: ثلاث فتيات وصبي واحد، تتراوح أعمارهم بين صفر تقريباً وثلاث سنوات وثمانية أشهر. بدا الأمر كأن السيد بنسون حاضر أيضاً، لأن السيدة بنسون أخبرت ستانديش بكل شيء عنه. كان السيد بنسون يعمل مدقق حسابات متجولاً لصالح أحد البنوك، وقد افترقا عن بعضهما بطريقة ما، وسلحقا به السيدة بنسون الآن في بنما.

وكان من بين الركاب الثلاثة الباقين اثنان من المبشرين، وهما السيد والسيدة براون، اللذان بدا كأنهما يقيمان حاجزاً كلما اقترب منهما ستانديش، كأنهما يوحيان بأنهما يعرفان عن الرب أكثر منه بكثير، بحيث لم تكن هناك جدوى من محاولة التصرف على نحو ودي. أما آخر رفقاء ستانديش فكان مزارعاً أمريكياً في الثالثة والسبعين من عمره، اسمه نات آدمز، ولم يكن لديه أي تفسير منطقي لوجوده حيث كان. فبعد حياة كاملة من الكدح الشريف، حدث له شيئان مهمان في أن واحد: محصول جيد من البطاطس، ونوبة شديدة من الرغبة في الترحال. ألقى المحراث، واشترى تذاكر السفر عشوائياً، والآن على متن السفينة «أربيللا» أصبح صديق ستانديش المخلص، ولم يكن من شرح مزاي طعم أسنانه الصناعية التي كان يخرجها من فمه، ويستعرضها بفخر عند أدنى سبب.

لم يكن مالكو السفينة «أربيللا» يجنون أي أموال في هذه الرحلة، وقد دار بعض الحديث حول توقف الخدمة بين بنما وهاواي في العام المقبل. كانت الحمولة قليلة في هذه الرحلة، لذا كانت السفينة «أربيللا» محملة جزئياً بالصابورة (١). وبكل صراحة، أحس السيد بريسيك بالقلق، لأنه تقدم في العمر، بينما طفلاه يكبران في بالتيمور، ولم يكن قد رأى طفليه أو زوجته منذ ثلاث سنوات، لكن الشركة كانت ترسل إلى السيدة بريسيك تلقائياً ثمانين في المائة من راتبه بوصفه ضابطاً أول، مما يترك له ما يكفي فقط تكاليف التبغ والملابس.

لم يُعَرِّ القبطان بيل أي اهتمام لركابه، فقد تناول العشاء معهم في المساء الأول من الرحلة، ثم انسحب إلى مقصورته، وقضى الأيام التالية في عزلة. وقال السيد بريسيك إن القبطان كان مهووساً بموضوع نماذج السفن، وقضى الرحلات الثلاث الأخيرة وهو يصنع نموذجاً مصغراً للمركب شرعي بأربعة صوار. وكان الضابطان الثاني والثالث والمهندسون وضباط الاسلكي زملاء لطفاء، وكانت لديهم مباراة بريدج من نوع ما تجري على قدم وساق، وكلما خرج أحدهم من المناوبة كان يحل محل الرجل الذي سيبدأ نوبة عمله. كانوا لطفاء مع الركاب، وكان السيد ترافيس، كبير المهندسين، يُطلع كل من يطلب على أعماق غرفة المحركات، لكن مباراة البريدج كانت تأتي في المقام الأول. وقد وصل السيد بريسيك إلى رتبة ضابط أول من خلال الطريقة القديمة المتمثلة في البدء كبخار عادي والتدرج في الرُّتب، ولم يكن يجيد لعب البريدج، سوى بريدج المزاي (٢) المثير للضحك، وهكذا اضطر بسبب الوحدة إلى الاختلاط بالركاب بين الحين والحين.

منذ البداية، قضى ستانديش وقتاً رائعاً، ومن دون أن يبدو غامضاً على نحو غير مبرر، استطاع أن يحصر الأسئلة المتعلقة بحياته الخاصة في الحد الأدنى، وقضى وقته في التطفل ببراعة على حياة زملائه في السفينة. لم يكن الأمر صعباً على الإطلاق، إذ كانوا جميعاً (باستثناء المبشرين) أكثر من راغبين في البوح بما في أنفسهم. ولاحظ ستانديش أن لديه رغبة قوية لاكتشاف كل ما يستطيع اكتشافه عن هؤلاء الأشخاص، ولأول مرة في حياته كان مهتماً بصدق بالغرباء من البشر. فكان يقضي ساعات وهو يحدق إلى وجه نات آدمز المتعفن، أو ينظر إلى عيني السيدة بنسون الزرقاوين الراضيتين. مثل أطفال آل بنسون مصدراً بهجة لا نهاية لها، واعترف ستانديش لنفسه بأنه استمتع بصحبة الصغيرين جيمي وجلاديس بنسون أكثر مما كان يستمتع بصحبة طفليه في نيويورك، على الرغم من أن الرب يعلم أنه يحب طفليه مثل أي أب آخر. لم يكن يلهو مع جيمي وجلاديس، بل كان يجلس على كرسية المريح على سطح السفينة ويراقبهما وهما يقومان بأكثر الأشياء جنوناً. وكان الاستماع إلى ضحكاتهما المرحة، والنظر إلى جسديهما موفوري الصحة وبشرتيهما المسمرتين الجميلتين، يملآن ستانديش بنوع لطيف من الشجن.

كانت الرحلة بأكملها رائعة حقاً. فبعد أن كان البحر هائجاً بعض الشيء في اليوم الأول، التالي للإبحار من هونولولو، أصبحت المياه هادئة بشكل ملحوظ، إلى درجة أن الأمر بدا أشبه بالإبحار على سطح محيط زجاجي.

كان الطقس مثاليًا، وهذه هي الكلمة الوحيدة التي وجدها ستانديش لوصفه. والواقع أن صيغ التفضيل العادية بدت كافية لستانديش في وصف الرحلة لنفسه، فهناك أشياء لا يمكن وصفها بالكلمات، مثل ألوان الغروب، وموج البحر الرقيق، ومجموعات النجوم في السماء ليلاً. أما البقية: المقصورة التي خصصت له، والطعام، والهواء، والفرش غير الناعم بملاءته النظيفة وبتأنيته ذات الرائحة الزكية، فقد كان يعتقد أنها أروع وأجمل وأعظم ما يمكن. وكان يأكل كثيراً، ويمارس تمارينه في حوض السباحة المصنوع من قماش الأشرعة المنصوب على سطح السفينة، وفي الليل كان يجلس، ويدخن سجائره، ويستمع إلى نات آدمز وهو يحاول أن يشرح كيف أن الرغبة في رؤية العالم قد هاجمت فجأة مزارعاً مقتصدًا من نيو إنجلاند.

اعتاد الإخلاء إلى النوم في وقت مبكر جداً كل ليلة، وهذا يفسر سبب وجوده حيث كان عندما سقط في المحيط. استيقظ ستانديش في الساعة الرابعة صباحاً على رنين الأجراس الثمانية الموجودة في برج القيادة في مقدمة السفينة، واستلقى بين الملاءات النظيفة لمدة عشرين دقيقة وهو يشعر براحة الاستيقاظ. كان قد أخذ إلى النوم في الساعة التاسعة من مساء اليوم السابق، وصارت الساعة الآن الرابعة والثلاث صباحاً، وأدرك ستانديش أنه لن يستطيع النوم أكثر من ذلك. كانت الكوة فوق فراشه مفتوحة على آخرها، فاعتدل جالساً في الفراش، وأراح ذقنه على النحاس البارد. بدا ذلك إحساساً غريباً، أرسل رعدة لذيذة عبر عموه الفقري. في النهاية، أخرج رأسه من

الكوة، وترك هواء البحر يضرب وجهه. وعلى بُعد مسافة قصيرة منه، أحدثت السفينة التي تشق طريقها عبر البحر ضجيجًا متدمرًا ثابتًا. ملأته النجوم من حوله بالرهبة، وبدأ كل شيء رائعا جدًا، حتى شعر ستانديش كأنه طفل صغير.

بعد أن أدخل رأسه من الكوة، قرر ستانديش النهوض وارتداء ملابسه. وكان قد حلق ذقنه عندما ذهب للنوم، ويمكن أن يرجى الاستحمام إلى ما بعد الإفطار، قبل أن يذهب للسباحة في حوض السباحة. سيرتدي ملابسه فحسب، ويتجول في الأجزاء، ويشاهد شروق الشمس.

حتى على متن هذه السفينة غير الرسمية، كان ستانديش يرتدي ملابس أنيقة. فقد شعر بطريقة ما بأنه ليس الرجل الذي يليق به ارتداء السراويل أو الأزياء الرياضية الغربية، وظل طوال الرحلة يرتدي بدلاته الرسمية المحافظة. كانت هناك خمس إجمالاً، وبعد أن أشعل الضوء الكهربائي اختار ستانديش بدلة رمادية من صندوق الملابس الواسع الذي كان مفتوحًا في الزاوية. لكنه خلع بيجامته أولاً، ووقف عارياً، وغسل أسنانه ويديه ووجهه في طست الماء في الغرفة. بعد ذلك مشط شعره الأسود الباهت الناعم، وعندما انتهى من ارتداء ملابسه، أخرج بعناية نقوده ومفاتيحه ومحفظته التي تحتوي على أوراقه من البدلة البنية التي كان يرتديها في اليوم السابق، ووضعها في الجيوب الملائمة من البدلة الرمادية.

وبمجرد خروجه إلى الممر، أحس بذلك الشعور الذي كان ينتابه دائماً على متن السفينة «أرابيلا»، بأنه صبي صغير مشاكس متورط في بعض الأعمال الشيطانية. بدأ المشهد هادئاً جداً، إلى درجة أن الأزيز المنبعث من غرفة المحركات جعل ستانديش يرتجف مرة أخرى. شرع يمشي على أطراف أصابعه تقريباً، كان وقع حذائه على الصفائح الفولاذية سيدنس المقدسات. بدأ العالم كله هادئاً للغاية، إلى درجة أن ستانديش شعر بالحيرة. السفينة الوحيدة التي تشق البحر الفسيح، والنجوم التي لا حصر لها التي تتلاشى من السماء الراحبة، كانت كلها أشياء أساسية، هدأت ستانديش، وأثارت قلقه في آن واحد. بدأ الأمر كأنه يتعلم لأول مرة أن جميع مشكلات حياته المرعبة كانت بلا معنى أو أهمية، ومع ذلك شعر بالخلج من وجود تلك المشكلات في نفس العالم الذي يمكن أن يخلق مثل هذا المشهد.

دخل ستانديش غرفة الطعام الخالية، وصب لنفسه فنجاناً من القهوة السوداء من ماكينة صنع القهوة التي تعمل طوال الليل. شرب القهوة من دون سكر، وترك السائل الساخن المر يوقظ جسده من الداخل، ثم دخن سيجارته الأولى، وأخذ نفساً عميقاً. وكان هواء البحر قد فعل العجائب بصحته، حيث اختفى تماماً السعال الخشن الناتج عن التدخين الذي كان يعانيه عندما هرب من زوجته منذ عدة أشهر. لبطالما كان ستانديش رجلاً قوياً يعتني بنفسه بشكل ممتاز، وكان يعلم أنه الآن في ذروة قوته البدنية، حيث كان في الخامسة والثلاثين من عمره، ولم يشعر في حياته قط بأنه أفضل حالاً مما هو الآن.

شارفت الساعة الخامسة تقريباً، وكانت الشمس على وشك الشروق. هبط ستانديش على أطراف أصابعه إلى سطح السفينة، وجلس بضع دقائق على القماش المشمع الرطب الذي يغطي فتحة مخزن البضائع. ثم شعر بالإثارة من دون سبب وجيه، كما تذكر بوضوح فيما بعد، وولج من باب الحريق، وسار عبر الممر الممتد بين طابقي السفينة، حيث يوجد المطبخ، ومطعم الطاقم، وغرفة الطعام، وغرف عمال السفينة، وغيرها من الغرف الأخرى من هذا القبيل. وكان الطباخ، وهو زوجي أمريكي، يشعل النار في موقد المطبخ بينما يغلب عليه النعاس.

ألقي ستانديش تحية الصباح، على الرغم من أنه لم يرغب في ذلك، إذ جعلت الأصوات البشرية، بما فيها صوته هو، المشهد أقل جمالاً. ابتسم الطباخ ابتسامة عريضة، وردّ التحية، مضيفاً بعض العبارات المبتذلة عن استيقاظ السيد ستانديش مبكراً مرة أخرى هذا الصباح. قال ستانديش:

- آه، نعم.

وتقدم إلى الأمام نحو عشرين ياردة أخرى. كان هذا مكانه المفضل في الصباح الباكر على متن السفينة «أرابيلا». أما مكانه المفضل في المساء فكان على سطح السفينة، خلف قارب نجاة معين، حيث يمكنه الجلوس وحدّه ومشاهدة الشمس وهي تغرب في السماء الرائعة. لكن هذا المكان الصباحي كان فائق البراعة، فقد كان عبارة عن فتحة في بدن السفينة «أرابيلا»: كان الممر يتعطف قليلاً قبل أن يمتد إلى الأمام نحو أقصى الميمنة، وبعد ذلك كان هناك بابان متينان للحريق، بهما مزيج أكثر من تلك الموجودة بباب خزينة، ونظراً إلى أن السفينة «أرابيلا» كانت تبحر في مثل هذا البحر الهادئ، مع ورود تقارير جيدة عن الطقس عبر اللاسلكي، كانت هذه الأبواب مفتوحة ليلاً ونهاراً. كانت هذه أقرب نقطة يمكنك الاقتراب فيها من البحر، وكان في إمكانك التمسك بإحدى الدعامات العديدة، والانحناء بعيداً، والنظر إلى أسفل تجاه الماء. كان المحيط الهادئ على بُعد لا يزيد على خمس عشرة قدماً بالأسفل، والبحر عند خط التقاء المياه بالسفينة «أرابيلا» يرغى ويبرز بألوان مختلفة حسب الوقت من اليوم. كان ذلك يصيبك بالدوار بعض الشيء إذا ظللت تتأمله كثيراً، وهو بالضبط ما فعله ستانديش. ومع ذلك، لم يكن هذا هو سبب سوء حظ ستانديش، إذ كان ستانديش طبيعياً من جميع النواحي، ولم يكن عرضة للإصابة بنوبات الدوار.

وقف هناك وقتاً طويلاً، ربما خمس عشرة دقيقة، يستمع فقط إلى هدير الماء الكئيب وأزيز محركات السفينة «أرابيلا»، ويتنفس بهدوء الهواء الناعم، ويحاول أن يتابع بعينين يقظتين التحول غير المحسوس لليل إلى نهار. لكن مثل أشياء أخرى كثيرة، كانت هذه متعة يمل منها الرجل البالغ إذا ما انغمس فيها طويلاً. تضاعفت متعة الاقتراب من المحيط على نحو خطير بالنسبة إلى ستانديش بعد فترة، مما جعله يشعر بالحفاقة بعض الشيء. وكان السبب الذي جعله يشعر بالحفاقة الشديدة، كما اكتشف بعد عدة ساعات، هو أنه شعر بالإثارة كطفل، وهو الأمر الذي يجعل كل الذكور البالغين يستأعون بدرجة كبيرة، إذا ما فكروا في ذلك على الإطلاق.

قرر ستانديش أن يهجر هذا المكان، على الرغم من أنه أدرك فجأة أنه لن يقف هنا مرات عديدة أخرى. سيصل إلى بابوا الأسبوع التالي، ثم يركب سفينة أخرى، حيث سيضطر على الأرجح إلى ارتداء الملابس الرسمية للعشاء، وهو في طريقه للعودة إلى نيويورك وطفليه وأوليفيا. ودّ أن يجلس على السطح بعض الوقت، ويترك قدميه تتدليان على جانب السفينة «أرابيلا»، لولا وجود العديد من بقع الشحم حوله. كان عمال السفينة يلقون النفايات في البحر من هذا المكان كل ليلة، ويبدو أنهم كانوا مهملين في الليلة الماضية، فقد تناثرت بعض قشور البطاطس وغيرها من الفضلات على سطح السفينة، وفاحت رائحتها قليلاً، وإن لم تكن بدرجة كافية لإفساد متعة ستانديش. افترض ستانديش أن البحارة سينظفون سطح السفينة في وقت لاحق من اليوم.

أمسك ستانديش بدعامة آمنة، وحدث طويلاً للمرة الأخيرة إلى الشمس المشرقة والمحيط الوادع، وتصور أنه لن ينسى أبداً مدى تأثير هذه اللحظة. كان العالم مليئاً بالعزة، وكانت العزة هي ما يحتاج إليه الإنسان ليعيش في سلام.

أخيراً، تساءل ستانديش، من دون سبب وجيه، عن الفرق المدهش في هذا المحيط بين الفجر والشفق. قرر أن يتناول فنجاناً آخر من القهوة، وتراجع إلى الوراء بقدمه اليسرى، ورفع يده عن الدعامة، وعندما تحرك حذاؤه الأيسر إلى الوراء اصطدم ببقعة شحم، فقام ستانديش بحركة يائسة للإمساك بالدعامة مرة أخرى، وتثبيت قدمه اليمنى على الأرض، لكنه أخطأ الدعامة، واصطدم

حذاؤه الأيمن ببقعة شحم أخرى، أو ربما كانت البقعة نفسها، لم يكتشف ستانديش ذلك قَطَّ. بدت بقعة الشحم خادعة، إذ كانت خشنة ولزجة من الأعلى، ولن تشك في خطورتها أبداً بمجرد النظر إليها فقط. لكن مع الضغط عليها فجأة، كما فعل ستانديش، ستجد نفسك تتزحلق على سطح زلق كالجليد.

كان أول ما فكر فيه ستانديش عندما اصطدم بالمياه هو إنقاذ نفسه من التعرض للتشوه بفعل رفاص السفينة. بدا الأمر كأنه درس طوال حياته ما يجب أن يفعله بالضبط في حال سقوطه من سفينة في المحيط الهادئ. احتدمت غريزة حب البقاء بقوة في صدر ستانديش في هذه اللحظة، وفعل ما يجب فعله على نحو صحيح. فقبل سنوات عديدة، عندما كان ستانديش شابًا، أخبره الضابط الثالث في سفينة ركاب كانت في طريقها من نيويورك إلى فرنسا في سياق محادثة بلا هدف، بأنه من بين الرجال الذين سقطوا من السفن في البحر، لا يوجد عدد كبير عانوا التشوه بفعل الرفاص بقدر ما يعتقد الإنسان العادي. نسي ستانديش اسم الضابط الثالث، لكن بعد دقائق قليلة كان مقدرًا له أن يستنتج من تجربته الخاصة أن هذا الرجل كان يعرف ما يتحدث عنه.

كانت «أرابيلا» سفينة ذات رفاص واحد، تتحرك بسرعة بطيئة تبلغ عشر عُقد في الساعة. وبدا البحر هادئًا كبحيرة صناعية، فغاص ستانديش مباشرة على نحو أخرق في خط مستقيم وسط المياه المالحة. غاصت ذراعاه أولًا، يلي ذلك رأسه، ثم بقية جسده، وانتثرت ساقاه بشكل مرحج عندما اصطدم بالمحيط الهادئ.

شعر بنفسه على الفور في دوامة عنيفة، إذ حاولت السفينة «أرابيلا» أن تسحب ستانديش إلى صدرها العريض، بينما حاول البحر أن يجذبه بعيدًا. وعلى الرغم من أن عينيه كانتا مغلفتين بإحكام تحت الماء، فإن ستانديش ركل بشكل غريزي، وخرج في الاتجاه الصحيح. متحكمًا بكل ما في ذراعيه وعضلاته من قوة، اندفع بجسده إلى السطح بعيدًا عن السفينة. مرة أخرى، اجتذبت السفينة «أرابيلا» نحوها مثل مغناطيس عملاق، ومرة أخرى ضرب الماء الذي يعلوه الرُبد بعنف. وفي اللحظة التالية شعر بنفسه يندفع بقوة كبيرة، فقال ستانديش لنفسه: «رباه! يا إلهي!». كان يعلم أن مؤخرة السفينة «أرابيلا» على مقربة منه، وأخبره إحساس داخلي بأنه لا جدوى من المقاومة خلال اللحظات القليلة المصيرية القادمة. لذا استسلم لمصيره، وشعر بنفسه وهو يؤدي العديد من الشقلبات تحت الماء وغيرها من الالتواءات البهلوانية رغمًا عنه. ولم يكتشف ستانديش قط مدى قرب هذه الشقلبات المجنونة من الرفاص الدائر للسفينة «أرابيلا». وفجأة شعر بنفسه يتخطى بلا رحمة، كان يدين عملاقين تصفعاذه ذهانيًا وإيائيًا بين راحتيهما. دُفع إلى الأسفل تحت البحر، إلى درجة أنه أحس بالألم في أذنيه من تغير الضغط، لكن بخلاف ذلك لم يصب بأذى. حيس أنفاسه طوال هذه المحنة، وأطبق عينيه وفمه بإحكام، وعندما صعد إلى سطح البحر بعد لحظات وسط الموج المالح الذي خلفته السفينة «أرابيلا» في أعقابها، لم يكن قد ابتلع أي ماء.

والغريب أن أفكار ستانديش خلال هذه الثواني كانت متعلقة بالخلج أكثر من الخوف. فلم يكن الرجال من طبقة هنري بريستون ستانديش يدورون في الأرجاء، ويسقطون من السفن في وسط المحيط؛ إنهم لا يفعلون ذلك فحسب، هذا كل ما في الأمر. كان هذا أمرًا غريبًا وصيبيانيًا وغير لائق، ولو كان هناك من يطلب منه ستانديش المعذرة، لفعل. في نيويورك، عرف الناس ستانديش بوصفه شخصًا مهذبًا، فقد ركزت تربيته وتعليمه على التهذيب. وحتى إبان مرافقته، كان ستانديش يفعل الصواب على الدوام. ومن دون أن يكون متكبرًا على الإطلاق أو متباهيًا بحسن خلقه، كان ستانديش جنئلمان حفاءً، من النوع اللطيف، النوع غير المزعج. كان السقوط من السفينة يسبب كثيرًا من الإزعاج للناس، حيث عليهم أن يلقوا في البحر سترات النجاة، وعلى القبطان وكبير المهندسين إيقاف السفينة وإدارة اتجاهها، ولا بد من إنزال قارب نجاة، وبعد ذلك سيكون هناك مشهد ستانديش وهو ميلل ورث تمامًا بينما يُعاد إلى السفينة الآمنة، فيما يصطف جميع الركاب على الدرابزين وهم يتسّمون تشجيعًا له، ولا شك أنهم سيفقدون له لاحقًا حكايات لا حصر لها عن حوادث مماثلة. كان السقوط من متن السفينة أسوأ بكثير من الاصطدام بصينية النادل أو الوقوف على ذبل ثوب سيدة. بل كان الأمر أكثر إجرًا من مصير فتاة المجتمع التعيسة في نيويورك التي تعثرت وسقطت من الدرج بالكامل في أثناء دخولها الكبير في ليلة ظهورها الرسمي الأول أمام المجتمع. كان الأمر مهينًا ومخزيًا، ويدفعك إلى أن تلعن نفسك لكونك أحرق إلى هذا الحد، ويجعلك تشعر بالرغبة في ركل نفسك. وعندما ترى رجالًا آخرين يرتكبون مثل هذه الأخطاء التي يرتكبها المهرجون البائسون، لا تجد في قلبك القدرة على مسامحتهم، ولا تشفق على ما أصابهم من ضيق.

لمعت أفكار من هذا القبيل في ذهن ستانديش، حتى وهو يتقلب في شقلباته الخشنة تحت الماء، بينما الرب وحده يعلم إلى أي مدى اقترب من الشفرات الدوارة لرفاص السفينة «أرابيلا». بعد ذلك، بينما هو يندفع إلى سطح البحر، في محاولة بائسة للحصول على نفس من الهواء، سيطر على عقله اتجاهان جديان من الأفكار، أحدهما أنه يجب عليه إبلاغ السفينة «أرابيلا» بمأزقه على الفور، والأخر أن الأمر برمته كان مضحكًا بدرجة كبيرة: رجل في مثل سنه يسقط من السفينة!

ومع ذلك، كانت الفكرة الأولى أقوى من الثانية. وعندما أخرج رأسه من الماء الذي يعلوه الرُبد، فتح فمه وأخذ نفسًا عميقًا، وفي الوقت نفسه بدأ يصرخ محذرًا.

لكن لم تخرج أي كلمة من بين شفثيه. وعلى نحو تلقائي، وطى ستانديش الماء، وفتح عينيه، ونظر إلى أكثر المناظر رعبًا التي رآها في حياته، وبدأ مرعًا للعاية، إلى درجة أنه شل عقله للحظات، ليس من الخوف، بل من الدهشة. كان المشهد هو مؤخرة السفينة «أرابيلا» العريضة العارية بشكل غير لائق، تحديق إليه على نحو ينذر بالشوم بكونها العديدة الشبيهة بالأعين وهي تبعد عنه في محيط من الرُبد. لم يتخيل ستانديش قط أن سفينة، أو أي شيء آخر، يمكن أن يبدو هكذا. ففي خلال أسبافه، أصبح خبيرًا في خطوط السفن، وكان يعرف السفينة الجميلة عندما يراها. في هونولولو، عندما نظر إلى السفينة «أرابيلا» من بعيد وهي ترسو على رصيفها، أعجب بها على الفور. فقد كانت طويلة وليست عريضة بدرجة كبيرة، ولم يكن بها أي تنافر في هيئتها من الفوهات أو المداخن، وكانت مطلية بلون رمادي هادئ، ولها برج قيادة غير بارز، وسطح يساعدها على الظهور بمظهر رشيق من طرفها. أعطت السفينة «أرابيلا» انطباعًا يجمع بين المانة والأناقة في هونولولو. كان المرء يفكر فيها بوصفها «أنسة»، أنسة مثقلة إلى حد ما، ولها خبرة، لكنها أنسة على الرغم من ذلك.

لكن ستانديش أدرك الآن كم أخطأ كثيرًا. حطمت عيناه بعض الشيء في محجريهما في تلك اللحظات القليلة وهو يحديق إلى المنظر المقرز، مفتونًا ومذعورًا. وكان قد رأى ذات مرة في حديقة الحيوان في نيويورك المؤخرة العارية لقرود بابون ناضج، فانبهر فترة من الوقت حتى تمكن الجانب الأرقى من نفسه من السيطرة على جانبه اللفظ، فأشاح بوجهه لينظر إلى الفيلة. ذكرته مؤخرة السفينة «أرابيلا» بمؤخرة ذلك البابون. أحدث الرفاص الذي يضرب الماء «أزيرًا» مستمرًا لم يسمع ستانديش مثله في أي مكان من قبل. ومن مؤخرة سطح السفينة، حيث كانت تلك الكوات الشبيهة بالأعين تتالعق بتعال يبعث على الرهبة، انحنت المؤخرة نحو الداخل تجاه الأسفل حتى الدفة، معلنة نوعًا ما من خلال الخطوط المنسحبة أن هذه أجزاء خاصة ينبغي للرجل المحتشم أن يعض بصره عنها. وعبر الوسط، تحت الكوات الشبيهة بالأعين، وُشم على جلدها بأحرف كبيرة بدرجة رهيبه:

«أرابيلا» - نيويورك

ولو كان الخيار بيد ستانديش، لما نظر إلى علامة الوشم تلك إلا بعد العيش مع «أرابيلا» سنوات عديدة.

بذت مؤخرة السفينة «أرابيلا» فائقة الضخامة، وكان هو ضئيلاً جدًا، إلى درجة أصابت ستانديش بالخرس. كان الأمر كأنك تمشي في سنترال بارك، وتحديق إلى ناطحات السحاب القريبة منك بقبابها الذهبية، وفجأة، وأنت تدور حول مجموعة من الشجيرات، تصادف وجهًا لوجه ديناصورًا يقرون نابضة. تنصباب بالصدمة للحظات عديدة، قبل أن تستجيب ردود أفعالك بشكل صحيح وتطلق صرخة. بعد عدة ساعات كان على ستانديش أن يفكر في كل هذا، وعلى الرغم من عدم قدرته على مسامحة نفسه على هذه الهفوة، فإنه توصل إلى قناعة بأن ذلك كان أمرًا لا مفر منه.

في هذه الأثناء، تقدمت السفينة «أرابيلا» مائة ياردة تقريبًا: ثلاثون ياردة على الأقل قبل أن يصل ستانديش إلى السطح، وسبعون ياردة أخرى بينما كان يحديق عاجزًا عن الكلام. وأخيرًا، أدرك عقله على نحو مروع ضياع تلك الثواني. جاهد نفسه بشدة لاستعادة رباطة جأشه، وربما كان ذلك السبب في هلاكه، لأنه نجح بعد جهد هائل في

أن يصبح شخصًا عقائديًا مرة أخرى. فلو أن خوفه تصاعد إلى حالة من الرعب الشديد، لصرخ بشدة طالبًا المساعدة، ولظل يصيح ويصرخ. وربما كان أحدهم على متن السفينة «أرابيلا» سيسمع صراخه، وإن كان ذلك الأمر محل شك، نظرًا إلى الأحداث الغريبة الدائرة عند مقدمة السفينة في ذلك الوقت.

ما حدث هو أن تربية ستانديش حكمت عليه بأن يكون جننلمان، حتى في هذه اللحظة. لم يكن آل ستانديش يصيحون، فقد غيرت ثلاثة أجيال من الجننلمانات البوق في حنجرة آل ستانديش الأولى إلى كمان رخيم. حتى إنه لم يكن من الضروري تعليم الصبي هنري بريستون ستانديش عدم الصراخ، إذ أدرك بالفطرة أن الصوت المعدل بنبرة رقيقة هو موطن قوة آل ستانديش، وهو واحدة من السمات العديدة التي مكنت آل ستانديش من الإزدهار في العالم المتحضر.

لذا بعد أن أصبح ستانديش عقائديًا بقدر ما يمكن لأي جننلمان سقط للتو من متن سفينة، أبلغ السفينة «أرابيلا» بطيشه.

صرخ قائلاً:

- رجل في البحر! رجل في البحر!

لكنه أدرك - وقد وجد ذلك الأمر مضحكًا جدًا - أنه لم يكن يصرخ. كان عليك أن تصرخ على نحو رهيب ليترك صوتك أثرًا في المحيط الهادئ. وانتاب ستانديش شعور سخييف بأنه يهمس فقط.

كرر للمرة الثالثة:

- رجل في البحر!

وأجهد نفسه بشدة لجعل صوته مسموعًا، لكن السفينة «أرابيلا» لم تكثرث لاستغاثته على ما يبدو، ونظرت مؤخرتها إلى الرجل في وسط المحيط نظرة غامضة.

قال ستانديش وهو يراقب السفينة «أرابيلا» تبتعد عشر ياردات أخرى، ثم عشرين، ثم ثلاثين:

- مهلاً! أقول، مهلاً! رجل في البحر، في البحر، في البحر! مهلاً! مهلاً!

واصلت السفينة «أرابيلا» طريقها في مسارها الصحيح من دون أن تدرِك أن أحد ركابها يتخبط في البحر. وكانت الأصوات تنتقل بعيدًا في المحيط الهادئ، لكن كان هناك شيء ما يتأمر ضد ستانديش: شيء من الضعف البشري في مقدمة السفينة «أرابيلا».

كان هناك قسمان في مقدمة السفينة، أحدهما على الميمنة حيث ينام البحارة، والآخر على الميسرة لرجال الإطفاء والمشحمين. كان أحد البحارة فنلنديًا يُدعى «بيورجستروم»، لم يقابله ستانديش من قبل. كان بيورجستروم رجلاً طيبًا متواضع السلوك، يقف أمام رؤسائه ممسكًا قبعته في يده ويبشيم بلطف، عندما لا يكون مُملًا. لكنه لم يدرك أن بني عرقه غير مهينين للإفراط في تناول الشراب، وخبياً في خزانته بعض الخمر الرخيصة التي اشتراها من هونولولو. وقد ظل طوال الألفية السابقة يضمم شيئاً من الضئيفة المؤقتة ضد الحياة، وأخذ يرتشف الخمر، حتى ظهر الآن المفعول الكامل لذلك السائل القوي. وعندما أرسل ستانديش استغاثته غير المجدية، كان بيورجستروم يثير ضجة كبيرة في مقدمة السفينة «أرابيلا». أخذ يغني ويتحدث مع نفسه بصوت عالٍ، وأخيراً طلب منه بخار آخر يُدعى «جاسكين» التزام الصمت، حيث كان يرغب في الحصول على قسط من النوم. رفض بيورجستروم ذلك رفضاً قاطعاً، وأصبح عدوانياً للغاية. ثم أدت كلمة إلى كلمة، وسرعان ما كاد الرجلان يشتبكان في شجار. ونظرًا إلى انطلاق لسان بيورجستروم بفعل الخمر وكون جاسكين ثرثارًا بطبيعته، بدأ جدال صاحب ازدادت حدته ومستواه مع مرور كل لحظة. وعلى الرغم من أن الركاب والضباط الذين في الأمام لم يسمعوا، فإن الطاقم في كلا القسمين من مقدمة السفينة سمعوا ذلك. أيقظ الصخب جميع من كانوا نائمين، فأضافوا إلى ضجيج الصوت صرخاتهم الغاضبة، مطالبين بالصمت المطلق حتى يتمكنوا من العودة إلى النوم.

وسرعان ما ترددت أصدا ضجيج فظيع من صيحات الاستهجان والصرخات وأصوات الحناجر العالية في مقدمة السفينة «أرابيلا» المصححة بالفولاذ. وخلال تلك اللحظات العصبية التي عاشها ستانديش، وصلت الأمور أخيراً إلى مرحلة جعلت بيورجستروم يسحب سكيناً، فاضطر جاسكين إلى إبقاده الوعي بضربه على رأسه بحذاء قديم. وقد اعتذر بيورجستروم إلى جاسكين في وقت لاحق من اليوم، عندما استيقظ بعد نوم طويل، وشرب عدة لترات من الماء، واستعاد وعيه مرة أخرى. تصافح الرجلان، وضرب كل منهما الآخر على ظهره، وهما صديقان حتى يومنا هذا. مع ذلك، يمكن للمرء أن يفهم أنه في خضم كل هذا الضجيج كان من المستحيل تمامًا سماع صوت ستانديش الهادئ وهو يصيح في الماء.

لم يكن ستانديش بالطبع على علم بهذه الظروف. وبينما أخذت السفينة «أرابيلا» تبتعد أكثر، حدث ما كان يجب أن يحدث لستانديش قبل دقائق قليلة: أدرك مصيره وفتد عقائديته، واستعاد صوته الحقيقي. أطلق صيحات شرسة وملينة بالرفع، إلى درجة أن ستانديش الأصلي الذي استقر على الأراضي الأمريكية في عام ١٦٥٠ تقريبًا كان سيومي برأسه باستحسان لو سمعه في قبره.

صرخ ستانديش:

- رجل في البحر! رجل في البحر، رجل في البحر، رجل في البحر!

كرر ستانديش هذه العبارة عشرًا، وعشرين، وثلاثين مرة حتى ازرق وجهه بعض الشيء، وخرجت أنفاسه لاهثة متقطعة. لكن السفينة «أرابيلا» اختارت أن تدير له أدنا صماء وهي تواصل طريقها. كان الضابط الثالث يدرس الخرائط في غرفة الإرشاد، وكان ضابط التموين شارداً في أحلام اليقظة، وعيناه على البوصلة، ويدها على الدفة بخفة، بينما القبطان بيل يتناول القهوة في مقصورته، ويطالع بفخر نموذج مركبه الشراعي ذي الصواري الأربعة الذي شارف الانتهاء، وكان الطباخ يقرع بالصحن في المطبخ، أما الآخرون فكانوا جميعاً منشغلين بالعمل في الأسفل، أو نائمين.

توقف ستانديش عن الصراخ فجأة كما بدأ، وصارت السفينة «أرابيلا» الآن على بُعد ربع ميل على الأقل. اختلطت الموجة التي كان ستانديش يطأ بها الماء في أعقاب السفينة، واختفت في البحر. كانت السباحة في الموجة التي يلوها الزبد في أعقاب السفينة شيئاً، والتمايل بلطف في البحر الساكن شيئاً آخر. كان أحدهما عابراً، جزءاً من الحياة التي عرفها ستانديش، شيئاً خلقه شيء من صنع الإنسان. أما الآخر فكان أبيضاً ومبمباً. ففي الموجة التي تخلفها السفينة، تدرِك أن ما ترك ما هو إلا أمر مؤقت، أما في البحر...!

على نحو غير مبرر، شرع ستانديش في الضحك. كان الأمر صعباً، حيث تبيّن عليه الاستلقاء على ظهره، والنظر مباشرة إلى السماء المعتمة، لكنه تمكن من ذلك. ضحك كما لم يضحك من قبل في حياته، ولن يضحك مرة أخرى: ضحكات هادرة، ضحكات رنانة، ضحكات جعلت الدموع تنفق من عينيه، وغص بها حلقه. هنري بريستون ستانديش سقط من السفينة! هنري بريستون ستانديش وحده في وسط المحيط! بدا الأمر مضحكاً حقاً، وكان منبع كل الفكاهة. لو أن أوليفيا راته الآن... والطفلين!

أصبحت الشمس المشرقة، التي كانت محجوبة عن ستانديش منذ أن سقط في البحر بسبب إبحار السفينة «أرابيلا» نحوها مباشرة، مرئية في الأفق دفعة واحدة، فإما أن ستانديش انحرف بعض الشيء مع التيار، وإما أن ضابط التموين بالسفينة «أرابيلا» قد سمح للسفينة بالخروج قليلاً عن مسار بوصلتها. رفع ستانديش نفسه قليلاً في الماء، وضحك في وجه الشمس المشرقة، وقد ارتفعت كاملة ومستديرة في السماء الشرقية المنخفضة، واستقر الجزء السفلي من ذقنها بنفاد صبر على الأفق. وحدقت إليه باستعلاء، كأنها تتساءل من هذه السمكة الغربية في بحرها المألوف!

فجأة أدرك هنري بريستون ستانديش مدى حقيقة وحدته في موقفه ذلك. كان كائنًا حيًا ضئيلاً وسط هذا العالم الشاسع. وكانت الشمس قوية جدًا، وهو ضعيف جدًا.

ذَكَرَهُ هَذَا الْمَحِيطَ الَّذِي لَا حُدُودَ لَهُ، الْوَاتِقَ بِقَوَاهِ، بِأَنَّهُ مَجْرَدُ رَجُلٍ خَائِفٍ بَعِيدٍ عَنِ مَوْطَنِهِ. مَرَّتْ
عِدَّةَ لِحْظَاتٍ قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَ سْتَانْدِيْشَ أَنَّهُ تَوَقَّفَ عَنِ الضَّحْكِ.

كانت هناك ندية رقيقة بطول بوصة واحدة على الجزء العلوي من معصم ستانديش الأيمن، حيث عضته أوليفيا منذ سبع سنوات. وقد تزوجته لاحقاً (بعد أن أعطت الجرح وقتاً للشفاء)، وكانا زوجين سعيدين. أعطت قوى خارجة عن سيطرة ستانديش سبباً لأوليفيا كي تعضه، إذ التقاها في حفل عشاء راقص أقامته شركة بيم وبينجلي الموقرة للسمسة في الأوراق المالية، التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم «بيم وبينجلي وستانديش». كان ستانديش شاباً يافعاً تخرج في جامعة ييل منذ خمس سنوات فقط، وكانت أوليفيا ابنة أخي بيم الذي كان صهراً لبينجلي، وما إن وقعت عينا ستانديش عليها حتى استولت عليه تلك القوى التي لم يكن قادراً على السيطرة عليها، وتمكنت منه. وقد حدث الشيء نفسه مرتين أو ثلاث مرات من قبل في طفولته وشبابه عندما رغب مثلاً في الالتحاق بجامعة ييل، وأصر والده على التحاقه بجامعة برنستون. وبطبيعة الحال، لم يعضه أبوه على الرغم من أن ستانديش كان له ما أراد وذهب إلى جامعة ييل.

وقد عضته أوليفيا عندما أوصلها ستانديش إلى منزلها بعد الحفل الراقص، وحاول تقبيلها بوقار في السيارة المتوقفة. واكتشفا فيما بعد أن الفرق الوحيد بين القبلة وتلك العضة هو عدم ثبات الأولى. تزوجا في غضون ثلاثة أشهر، وأنجبا على مدى السنوات طفلين أحباهما كما ينبغي. كانت حياتهما محترمة وراقية ومهذبة، ولم يكن هناك ما يميزهما عن حياة آلاف العائلات الأخرى الميسورة التي تعيش في شقق من أربع غرف في سنترال بارك ويست. لم يُعاني الجوع والظما قط، ولم يواجه أي تقلبات تجعلهما ينتفضان فجأة من الصدمة، ويدركان أن هناك نوعاً قاسياً من الحياة يدور حولهما.

كان والدا ستانديش على قيد الحياة، وكانا أيضاً شخصين محترمين، يقيمون في أورانج بنيوجيرسي. كان ستانديش واحداً من ثلاثة أطفال، أما الاثنان الآخران فكانا فتاتين، وقد تمتع بالفضل في كل شيء، من دون أن يدرك أنه الأفضل، وأخذ كل شيء كأمر مسلم به على نحو يفترق إلى أي خيال.

نادراً ما أثرت تلك القوى الخارجة عن السيطرة على ستانديش، لكن عندما تتمكن منه، كانت تسيطر عليه تماماً حتى يصير عبداً لكل نزوة. وفيما عدا ذلك تدفقت الحياة بسلاسة، وهي بالكاد تهمس في أذنيه.

ذات مرة، علقت عمته كلارا في سياق مناقشة حول صفات آل ستانديش وردائلهم وفضائلهم، قالت:

- هنري هو الحزين في العائلة.

كانت تقصد أن ستانديش محافظ بطبيعته، سلبته تربيته الألوان الزاهية، مما جعله غير مثير للاهتمام، كلوحة رمادية.

كان يفعل كل الأشياء اللائقة، لكن من دون حماس. فقد حافظ على لياقته البدنية من خلال السباحة ولعب كرة اليد في النادي الرياضي، إلى جانب لعب الجولف في موسمه مع بيم وبينجلي. وحافظ على أمواله من خلال بيع الأسهم للأخريين، وشراء السندات الحكومية لنفسه. كان حسن الإطلاع، ومواطناً صالحاً. كما كان يدلي بصوته في الانتخابات بعناية، ويفعل كل شيء بعناية. ودائماً ما كانت شفته نظيفة ومرتبّة، وخرانة مؤنه ممثلة. وكان يشرب باعتدال، ويدخن باعتدال، ويصاحج زوجته باعتدال. في الحقيقة، كان ستانديش من أكثر الرجال إثارة للضجر في العالم. وعلى الرغم من أن علماء النفس قد يؤكدون استحالة ذلك، فإن ستانديش لم يكن انطوائياً ولا منفتحاً.

أحب ستانديش طفليه هنري الصغير، وهو في الخامسة من عمره، وهيلين، وهي في الثالثة من عمرها، بنوع من الفخر والشجن.

ولم ترتبط أي فضائح بستانديش قط، على الرغم من أنه كان يرتاد النوادي الليلية، من دون أوليفيا غالباً، وكان يلعب البريدج، ويقضي الأمسيات في حانة النادي باعتدال.

ومع ذلك ففي يوم من أيام الربيع منذ ثلاثة أشهر فقط، بعد وقت قصير من احتفاله بهود بالذكرى السنوية السابعة لزواجه باصطحاب أوليفيا وآل بيم وآل بينجلي إلى المسرح، وجد ستانديش نفسه وهو جالس في مكتبه الخاص بوسط المدينة وقد هاجمه فجأة اضطراب غامض. توقف عما كان يفعله، ونظر حوله إلى الأشياء المألوفة؛ الأوراق على مكتبه، والنوافذ، والصور على الجدران، والهاتفين. لطالما كانت كل هذه الملحقات مرغوباً فيها ومريحة، لكن ستانديش أدرك الآن، في شيء من الدهشة، أنها لم تكن سوى غبار في فمه. شعر بالاعتلال والتعب والاكنتاب. وبعد أن قدم اعتذارات مناسبة إلى بيم وبينجلي، اللذين كانا مشغولين بالمعاملات المالية، إلى درجة أنهما لم يلاحظا مدى خطورة ما أصابه، ذهب في نزهة طويلة وحيداً حول حديقة باتري.

لم يسبق لستانديش أن قام بمثل هذه النزهة الطويلة وحده من قبل، فارتفع حجاب من أمام عينيه، ورأى العالم بألوان مختلفة. وبدت رائحة الهواء الذي يتنفسه مختلفة، وكان للسجارة التي يدخنها طعم غريب، ودار طنين خافت في رأسه، وهو نفس الرأس الذي كان حتى الآن من أكثر الرؤوس اتزاناً في الحي المالي.

في الحديقة، اصطدمت مياه الخليج بعنف بالشاطئ الحجري، واتكأ ستانديش بلا حراك على أحد الحواجز وهو ينظر إلى البحر بعينين خائفتين محتقنتين بالدماء. تمكنت منه قوى خارجة عن إرادته وهزته من كتفيه، وهمست إليه من بين أسنانه: «يجب أن ترحل من هنا، يجب أن ترحل!».

لم يكن لدى ستانديش أي فكرة عن المكان الذي أرادت منه الذهاب إليه، أو لماذا، فسار عبر شارع برودواي. لم يكن هناك أي سبب منطقي يدعو إلى الرحيل، إذ كان كل شيء في مكانه الصحيح في حياته. كان العمل على ما يرام، والطفلان يكبران، وكان من الممتع الجلوس والنظر إليهما، كما أن أوليفيا مخلصه له، وكان على استعداد لأن يراهن على ذلك بأخر دولار لديه. وهي امرأة حسنة المظهر، ستظل جذابة وجميلة لسنوات عديدة قادمة.

عاد ستانديش إلى مكتبه، وجعله منظر بيم وبينجلي يشعر بالاشمزاز بالفعل. ومن حسن الحظ، غادر قبل أن يلحظ اشمزاز. استقل سيارة أجرة إلى المنزل، وذهب إلى الفراش مباشرة. أرادت أوليفيا أن تستدعي الطبيب على الفور، لكن ستانديش رفض، وقال إنه يريد أن يستريح وحده في غرفة نومه فحسب. اتصلت أوليفيا بالطبيب على أي حال، وكان ستانديش منشغلاً بأفكاره الخاصة، إلى درجة أنه لم يستطع الاحتجاج.

بذت هذه الغرفة سجنًا، والشقة والمكتب، وكانت أوليفيا والطفلان حراسه. شعر بأنه يجب عليه الهروب، وإلا سيصاب بالجنون.

قال الطبيب، وهو طبيب أسرة عقلاني، وُلد على يديه طفلاً ستانديش، إنه لا يعاني مشكلة خطيرة، فقط إرهاق من فرط العمل، على الرغم من أن ضغط دمه كان مرتفعاً بعض الشيء. نصح الطبيب ستانديش بالراحة في الفراش عدة أيام، وأن يحاول عدم التفكير كثيراً في أعمال السمسة. وقال إنه قد يكون من الحكمة أن يذهب ستانديش إلى مكان ما للراحة، لكن ستانديش لم يُجره أي اهتمام.

لم يفكر ستانديش في أعمال السمسة قط، بل فكر فقط في أنه لن يتمكن من التنفس بحرية مرة أخرى ما لم يذهب بعيداً. وتصرفت أوليفيا بلطف وبشكل طبيعي للغاية بشأن الأمر برمتها، ولم يخطر ببالها قط أن ستانديش قد يكون في حاجة إلى طبيب نفسي، إذ لم تكن الأمراض العصبية والعقلية تسري في دماء آل ستانديش. حرصت فقط على أن يأتي الطبيب كل يوم، وعلى ألا يزج أحد زوجها.

وفي اليوم الرابع من مرضه نظر ستانديش إليها بعينين بانستين:

- أوليفيا، يجب أن أرحل.

كانت تحبه حقًا. قالت:

- بالطبع. كم كان غباءً مني ألا أرى مدى سوء حالتك في الأشهر القليلة الماضية. أنت في حاجة إلى الراحة يا هنري. هل تريد الذهاب إلى الجبال أم إلى البحر؟

- البحر.

نهض ستانديش من فراشه، وارتدى ملابسه على عجل، واستقل سيارة أجرة إلى وكالة سفريات. ولم تطلب أوليفيا الذهاب معه في الرحلة، حيث كانت تعلم أنه يريد الذهاب وحده.

اشترى ستانديش تذكرة على متن سفينة أمريكية ستبحر في اليوم التالي إلى كاليفورنيا. وبمجرد وصوله إلى الساحل الغربي، سمع أنه يمكنه أن يقرر إلى أين سيذهب بعد ذلك. جرى الاتفاق على أن يبقى بعيداً لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر. ووجد ستانديش صعوبة في الحفاظ على رباطة جأشه خلال تلك الساعات الأربع والعشرين الأخيرة في المنزل، فقد شعر بأنه يتداعى، ومما زاد الأمر سوءاً عدم قدرته على تقديم تفسير منطقي لأوليفيا. كانت رائعة في كل شيء، فربما كانت زوجة أخرى ستبحث عن دافع خفي، أو ربما تقبلت في العمل لا تعرف عنها شيئاً، أو عن امرأة أخرى تنتظره في مكان ما. لكن أوليفيا كانت مخلصه ووثيقة حتى النهاية. وعندما قبلها ستانديش قبلة الوداع شعر بالحجل، لأنه لم تكن هناك حماسة في تلك القبلة، إذ كان ذهنه سارحاً في أفق بعيدة، وليس مع أوليفيا.

وبدا أن الطفلين أيضاً قد فهما أنه لا ينبغي لهما إثارة ضجة. نظر هنري الصغير إلى أبيه نظرات استعطاف، وكان صامتاً عندما قبله ستانديش على عجل على خده. وحتى هيلين الصغيرة نظرت إليه من فراشها بعينين متسائلتين حزبتين.

عندما دوت صفارة السفينة، أمسكت أوليفيا يد زوجها اليميني، وهدقت إليه طويلاً بعينين ملؤهما الشفقة والحنان قائلة:

- اعتن بنفسك يا هنري، وتأكد من حصولك على راحة طويلة.

فأشاح بنظره عنها وهو يشعر باليأس، كأنه مكبل بالأغلال. تمت بشيء بخصوص أنه لن يقصر في الكتابة إليها من كل مرفأ، وقادها إلى رصيف الميناء.

لم يمكث حتى ليشاهدها واقفة وسط الزحام على الرصيف، بل حبس نفسه في مقصورته، ودخن عددًا لا نهاية له من السجائر، وهو يتساءل ما الذي أصابه بحق السماء. شعر بالسفينة وهي تغادر الرصيف وتمضي عبر الميناء. وأحس بأنه ينتظر شيئاً ما، لكنه لم يعرف ما هو.

جلس ثلاث ساعات في مقصورته بانسًا، ثم نهض فجأة، ومن دون أن يفكر أو يشعر بأي اختلاف، خرج إلى الممر، وصعد طابقيين من السلالم إلى سطح السفينة.

وعندما ضربت الرياح وجهه، كانت صدمة الابتهاج كبيرة جداً، إلى درجة أنه ترنح يوهن متكئاً على الحاجز، وتشبث به بشدة. تجاوزت السفينة فنار قناة أميروز، وتلاشى كل إرهابه وكل شكوكه ومخاوفه بشكل سحري في البحر. خفق قلبه بشدة من الفرح. ومع ذلك، فقد أدرك على الرغم من شعوره بالارتياح مرة أخرى أنه لم يكن نفس الشعور الذي اعتاده من قبل.

ذهب ستانديش إلى المكتبة، وكتب لأوليفيا رسالة طويلة عن الآثار الطيبة لهواء البحر.

كانت الرحلة إلى كاليفورنيا مبهجة، وبدا أن لديه متسعاً من الوقت لكل شيء: القراءة، والكتابة، واللعب، والأكل، والشرب، والنوم. لكن صارت هناك متعة معينة في الأشياء الآن لم يكن قد اختبرها في منزله من قبل، إذ تكثفت كل أحاسيسه.

عندما وصل ستانديش إلى سان فرانسيسكو، قطع رحلة ممتعة على مهل عبر الساحل، وعبر الطريق النهري الداخلي إلى ألاسكا. وكوّن صداقات أينما ذهب، لكن على الرغم من إعجاب الجميع به، فإنه فضل البقاء وحده معظم الوقت. وعندما عاد إلى سان فرانسيسكو رادته فكرة العودة إلى نيويورك. وفي الواقع، فقد تحدث إلى أوليفيا عبر الهاتف ذات ليلة مكالمة بعيدة المدى، لكن بمجرد أن سمع صوتها تخلى عن فكرة العودة.

قالت أوليفيا:

- أشعر بالوحدة الشديدة من دونك هنا يا هنري. ألا يمكنك العودة؟

أتى صوته محمولاً عبر السماء الصافية، وقال:

- أود أن أرى هونولولو ما دمت في هذه الناحية، فعلى الأرجح لن أتمكن من القيام برحلة كهذه لفترة طويلة قادمة.

وسألها عن حال الطفلين، فقالت إنهما صارا متقلبين ومضطربين منذ رحيله:

- إنهما يفتقدانك يا هنري. يفتقدانك حقًا.

كاد يضرب الأرض بقدمه وهو يقول:

- أود الذهاب إلى هاواي.

تسلل الخوف إلى صوتها على بُعد ثلاثة آلاف ميل:

- لماذا يا هنري؟

- لا أعرف.

- هنري! ماذا حدث؟

طمأنها قائلاً:

- لا شيء يا أوليفيا، حقًا. أشعر بأنني بخير. لقد زاد وزني، ولم أشعر بمثل هذه القوة في حياتي من قبل.

عندما ودَّعها، وأغلق السماع، شعر بالحماسة. رجل في مثل سنه، في الخامسة والثلاثين من عمره، في مقتبل الحياة، سمسار ناجح وعنيد يستسلم لأهوائه بهذه الطريقة! كانت هذه حماقة. لكن عندما اشترى تذكرة الباخرة المتجهة إلى هاواي شعر بالسعادة بالفعل، وكانت تلك الرحلة أيضًا ممتعة طوال الطريق. مكث في واياكيكي ثلاثة أيام، ثم قرر العودة إلى المنزل. وكان من قبيل المصادفة البحتة أنه استقل السفينة «أرابيلا»، إذ كان ينوي العودة إلى سان فرانسيسكو على متن نفس الباخرة التي أقلته إلى هونولولو، ثم يعود إلى نيويورك. لكن حين نزل من غرفته لتناول العشاء وتوقف عند مكتب الاستقبال ليضع مفتاحه في الصندوق، سمع مساعد المدير يخبر رجلًا غريبًا - ولم يستطع ستانديش أن يستعيد في ذهنه صورة هذا الرجل - عن السفينة «أرابيلا».

قال مساعد المدير:

- إذا أردت راحة لطيفة فلماذا لا تستقل السفينة «أرابيلا» غدًا؟ واحد وعشرون يومًا إلى بنما، وكلها إبحار سلس.

قال الرجل الغريب لمساعد المدير إن واحدًا وعشرين يومًا تزيد عما يحتاج إليه بأربعة أيام، وإنه سيأخذ السفينة المعتادة إلى سان فرانسيسكو. لكن ستانديش دخل غرفة الطعام متقلب المزاج، وهو يدير كلمة «أرابيلا» على لسانه. تذكر أنه على متن السفينة من نيويورك إلى سان فرانسيسكو، بعد أن عبروا قناة بنما، أخبره أحد الركاب عن تلك الرحلة. قال الراكب:

- إذا أردت أن ترى أجمل غروب للشمس في العالم على بحر هادئ بشكل لا يُصدق فاستقل سفينة من بنما إلى هاواي، أو العكس.

اتخذ ستانديش قراره، ولم تكن هناك مشكلة في الحصول على حجز. أرسل برفقة إلى أوليفيا: بدلًا من العودة إلى المنزل في غضون ستة أيام، سيغيب شهرًا آخر. أبحر في اليوم التالي على متن السفينة «أرابيلا»، ولم يندم على قراره قط، حتى اليوم الثالث عشر بعد الإبحار.

كانت النقطة التي سقط فيها ستانديش في البحر تقريبًا عند خط العرض ١٢ شمالًا وخط الطول ١٠٨ غربًا في المحيط الهادئ.

كانت تلك الدقائق القليلة الأولى من النظر إلى الشمس دقائق سيئة، لكن بعد ذلك عاد الجانب المهدب من ستانديش للسيطرة مرة أخرى. كان منظر الشمس مرعباً ومهيّباً بالفعل، لكنها في النهاية لم تكن سوى الشمس، والمحيط لم يكن سوى مجرد محيط. كانت هذه أهدأ بقعة محيط في العالم، وكان رجالاً قوياً، ولم يكلفه الأمر أي جهد يُذكر كي يطأ الماء ويظل طافياً. ومنذ عدة أيام، استفاض السيد بريسيك في شرح عدم وجود أسماك قرش أو أسماك خطيرة في هذه المياه. لم يفهم ستانديش الأمر، فقد كان السبب بحرئياً بدرجة كبيرة، له علاقة بالتيارات والرياح ودرجة حرارة الماء، لكن المحصلة النهائية ظلت عالقة في ذهنه، وكانت أول ما فكر فيه بعد أن ابتعدت السفينة «أرابيلا» نوعاً ما.

كانت الشمس قد أشرقت للتلو، وامتدت أمام ستانديش اثنتا عشرة ساعة كاملة قبل أن تغرب الشمس، وكان على يقين أنه يبدو نقطة بارزة وسط البحر الهادئ. اقتربت درجة حرارة الماء من الفتر، ولم يحمل الهواء أي برودة. ولن يواجه مشقة في قضاء أي عدد من الساعات من دون طعام، أما بالنسبة إلى الماء، فلم يكن ستانديش يشعر بالعطش بعد، وكان على ثقة بأنه يمكنه البقاء اثنتي عشرة ساعة، إذا لزم الأمر، من دون شرب. وعاجلاً أو آجلاً سيلاحظون غيابه على متن السفينة «أرابيلا»، وسيستنجون في الحال أنه سقط في البحر، وسيعودون بالسفينة للبحث عنه. ولن يسعهم إلا أن يعثروا عليه في وضح النهار، إلا إذا كانوا عمياً تماماً، لأنه كان الشائبة الوحيدة في هذا البحر الشاسع. وفي ركن ما في ذهنه دارت فكرة أنه لا بد أن التيار يحركه بشكل غير محسوس بعيداً عن البقعة التي سقط فيها من السفينة «أرابيلا» في البحر، ولكنه قرر أن هذا ليس شيئاً يدعو إلى القلق، فإذا كان التيار يحركه فهو يحرك السفينة «أرابيلا» أيضاً، لذلك كانت الأمور متوازنة على المدى البعيد.

في واقع الأمر، شعر ستانديش بالمرح بعد فترة من الوقت. ذات مرة منذ زمن بعيد، سبج مسافة كبيرة على نحو خطير وراء العوامة على شاطئ لونغ آيلاند، وأحس بالمرح المفاجئ. كان هذا هو شعوره الآن. لم يكن هناك أي شك في أن هذه مغامرة رائعة، فيها هو ذا، وهو مسمر ذو قوة ومواهب عادية، يباري ذكاه ضد عناصر الطبيعة. وعلى الرغم من أن الطبيعة مالت إلى أن تكون مسالمة، فإن الأمر بدأ مثيراً للغاية. لم يطق ستانديش الانتظار حتى يتمكن من إخبار شخص ما عن ذلك.

راح ستانديش يفكر في هذا الموضوع كثيراً وهو يواجه الشمس، على الرغم من أنها تحرق عينيه، بينما كان يراقب بعناية ليرى متى سيكتشف من على متن السفينة «أرابيلا» غيابه، ويعودون للانقطة. وبطبيعة الحال، سيضطر إلى مواجهة الشعور بالخزي عندما يسبحونه إلى سطح السفينة، وهو رجل ناضح يبدو أنه في كامل قواه العقلية، وربما سيتعين عليهم حتى إطلاق قارب نجاه لاستعادته. كما سيكون هناك خزي توضيح الأمر للقبطان بيل، الذي سيلقي كل اللوم بلا شك على السيد بريسيك وفقاً للعرف البحري القديم الذي يستدعي لوم الضابط الأول على كل شيء. سيشتعر بالخزي في مواجهة الركاب، ولا سيما السيد والسيدة براون اللذان سيعتقدان بالتأكيد أنه أحمق. كما سيستاء من عدم قدرته على منع أطفال السيدة بنسون من التحدث علانية عن هذه المسألة التعيسة بعد أن يبدأ الآخرون الفهم، من خلال بعض التحفظ في سلوكه، أنه من الأفضل عدم مناقشة الموضوع إلا إذا طرحه بنفسه.

لكن بعد أن تنتهي الرحلة، وعندما يعود إلى أوليفيا والطفلين في نيويورك، سيكون من اللطيف أن يروي الأحاسيس التي يشعر بها الآن. سيصاب بيم وبينجلي بالذهول.

أخذ ستانديش يطأ الماء بتكاسل أكثر من ذي قبل حتى، وابتسم بسعادة، وسرعان ما وجد نفسه يضحك بالفعل كطفل هستيري.

تخيل بيم وهو ينظر إليه بريية:

- لكن، ألم تكن خائفاً من أسماك القرش؟

- لا يا بيم، كما ترى، لا توجد أسماك قرش في تلك المياه. الأمر له علاقة بالتيار والرياح. إنه موضوع تقني بدرجة زائدة، وإلا كنت سأحاول التوضيح.

ربما كان من الحكمة أن يكذب قليلاً بخصوص هذه النقطة. ففي النهاية، لا يوجد سوى قلة من الأشخاص الذين قضوا وقتاً وحدهم في وسط المحيط، ولن يتمكن أحد من التحقق مما يقوله، على الأقل لا أحد في دائرته المحدودة من رجال الأعمال وزوجاتهم.

- بالطبع لم أكن خائفاً من أسماك القرش أيها العجوز بيم. عندما يحين أجلك فلا مفر من الأمر، هكذا فكرت. لو كان مقدراً لسماك القرش أن يجديني لوجدني. هذا ما قلته لنفسني، وتركت الأمر عند هذا الحد.

لكن أوليفيا كانت الشخص الذي أراد أن يروي له القصة! استنسع عيناها الزرقاوان، ولن تقاطعه في أثناء حديثه. كانت تلك إحدى المميزات الجميلة في أوليفيا: لم تكن تقاطعه قط.

- كنت هناك يا عزيزتي أتجول في السفينة، وفجأة خطرت لي فكرة النزول إلى فتحة صغيرة في الطابق السفلي لأرى شروق الشمس. راقبت الشمس فترة من الوقت، ثم خطوت إلى الوراء وانزلت وغطست على نحو مجنون في المحيط مباشرة هل يمكنك تخيل ذلك؟ رجل في مثل عمري! لا، لم أكن خائفاً. لماذا أخاف؟ أنا سباح ماهر، وكانت المياه أهدأ مما يمكنك تخيله. شعرت بالإثارة بالطبع، واستمتعت جداً بالموضوع كله. كما ترين، كنت هناك في عالم على متن السفينة، أمناً، مطمئناً، وشعبان، وفجأة بلح البصر، زلت قدمي، وبعد ثوانٍ قليلة صرت في عالم مختلف تماماً.

حلت الكآبة فجأة على تفكير ستانديش. لاحظ أن حالته المزاجية تتقلب بسرعة. ربما لم يكن عليه التفكير في هذين العالمين المختلفين اللذين تفصل بينهما بضعة ثوانٍ من الزمن.

نظر ستانديش تلقائياً إلى ساعة يده. كانت ساعة عالية الثمن، أهدته إياها والدته عندما كان في الجامعة، ولم يواجه أي مشكلة معها. كانت تحدد الوقت بشكل ممتاز، ولم تحتاج إلى الإصلاح قط، وربما كان ثمنها مائة دولار. لكن كم احتضرت سريعاً في اللحظة التي ارتطمت فيها بالماء! فإذا أخذت كل شيء في الحسبان فستجد بعض الأشياء ملائمة بشكل خاص للحياة على اليابسة، بينما يزدهر البعض الآخر في الماء. قضت ساعة اليد نحبتها في لمح البصر، حيث كان الماء هو سمها الزعاف، وخنقت بضعة قطرات من الماء كل أنفاسها. أما الأشياء الأخرى، مثل البط المطاطي، والإسفنجة، والأعشاب البحرية، فكانت تزدهر وتتمو في الماء. لكن ماذا عن الإنسان؟ قرر ستانديش أن الإنسان متقلب المزاج تجاه الماء، فأحياناً يزدهر معه، وأحياناً يذوي.

أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة وثلاث وعشرين دقيقة. وقد أدار عقارب الساعة كل يوم لتتوافق مع وقت الزوال الذي أعلنه السيد بريسيك على لوحة الإعلانات في غرفة الطعام. كانت الساعة الخامسة وثلاث وعشرون دقيقة هي الوقت المحدد لسقوطه في البحر.

- كانت الساعة الخامسة وثلاثاً وعشرين دقيقة بالضبط. أعرف هذا، كما ترين، لأن ساعتني توقفت عندما سقطت في الماء.

فجأة شعر ستانديش بنفاد صبره. لم يكن رجلاً يتحمل نفاد الصبر، كما كان الموظفون في مكتب السمسة يعرفون جيداً. لماذا لم تستدر السفينة «أرابيلا» للانقطة كي يبدأ في سرد القصة لشخص ما؟ شعر بالوحدة هنا في وسط المحيط. وإذا استمرت الأمور على هذا النحو فسيتنهي به الأمر بالتحدث إلى نفسه، وكان هذا شيئاً يمكن لهري بريستون ستانديش أن يتفاخر بصدق بأنه لم يفعله قط.

بدأت السفينة «أرابيلا» الآن بحجم زورق تجديد فقط. قدّر ستانديش أنها صارت على بُعد خمسة أميال، وخمن أنه ظل في الماء نحو نصف ساعة. في الواقع قضى ستانديش في الماء أربعين دقيقة، وكانت السفينة «أرابيلا» على بُعد سبعة أميال. ومع ذلك، كان هذا الخطأ في التقدير يرجع إلى قلة خبرته في قياس الوقت والمسافة، بقدر ما يرجع إلى تقاوله الذي يمكن تبريره بخصوص هذه المسألة.

صار وطء الماء من دون أي راحة أمرًا مرهقًا لبعض الشيء. تذكر ستانديش أنه يستطيع الطفو على سطح الماء. لطالما وجد تلك الكلمة مضحكة إبان شبابه. شرح له أحد المفتشين الأمر ذات مرة: «بعض الناس يمكنهم الطفو، والبعض الآخر لا يستطيعون ذلك، هذا كل ما في الأمر». كان في إمكان ستانديش أن يمد ذراعيه، ويفرد أصابع قدميه إلى الأمام، ويستلقي مغموسًا ظهره. ومن ثمّ، إذا أبقي رنتيه ممثلتين بالهواء، وغير إمداداته من الهواء بدفعاات سريعة خاطفة، فسيتمكن من الطفو إلى أجل غير مُسمّى من دون جهد كبير. في شبابه، كان من أعظم متعه أن يسبح عدة مئات من الأمتار في خليج لونج آيلاند، ويغلق عينيه، ويطفو في الماء فحسب نحو ثلاثين دقيقة أو ساعة.

قرر ستانديش الاستفاضة من قدرته على الطفو. مثّلت ملايسه مشكلة، لكن سيكون عليه مواجهة الأمر بشجاعة. كان أي شخص غريب ينظر إلى ستانديش سيفسّمه مغلظة إنه يرتدي ملابس داخلية بيضاء. لكن حقيقة الأمر أن ستانديش اختار ارتداء ملابس داخلية مخططة وملونة. وفي الوقت الحاضر، كان يرتدي قميصًا رياضيًا أبيض وسروالًا مخططًا باللونين الأزرق والأصفر. وبالإضافة إلى السبب المتمثل في الاحتشام الطبيعي للرجل، كان هذا سببًا آخر جعل ستانديش يقرر أنه من المستحيل أن يسمح بانقاده وهو يرتدي ملايسه الداخلية فحسب. سيكون الصعود على متن السفينة «أرابيلا» مرتديًا سروالًا أبيض أمرًا سيئًا بما فيه الكفاية، لكن السروال الأزرق والأصفر الذي يمكن للجميع تأمله، بمن فيهم السيد والسيدة براون، كان مستحيلًا، حيث إن إحساس الرجل بالحشمة لا يقل أهمية عن حياته ذاتها.

في اللحظة التالية أدرك ستانديش مدى زيف هذا الاعتقاد. فقد شعر بالحمّ طفيف في كتفيه من وطء الماء. وبمجرد أن أدرك هذا الإجهاد، غيّر رأيه. ولم يخطر بباله قط أن عقله العوبة في يد جسده، وأنه لا بأس بالقناعات إلى أن يحتاج الجسد إلى شيء ما، وعندئذ يطوّع الجسد العقل لتنفيذ أوامره. كل ما كان يعرفه ستانديش هو أنه لم يُعدّ يبالي فجأة ما إذا رأى الناس الطيبون على متن السفينة «أرابيلا» سروال الأزرق والأصفر. أراد أن يطفو، وقسمًا بالرب سيفعل.

بدأ استعداداته لخلع ملايسه بطريقة منهجية، فخلع حذاءه أولًا. وقد تمكن من خلعه من دون أن يفك الرباط، حيث تحرر منه بقليل من الضغط، ثم تركه يغيب عن ناظره في المحيط، من دون أن ينظر إليه ولو مرة واحدة أخيرة، ولم يفكر إلا في أنه كلفه ثلاثين دولارًا، ومن الجيد أن صانع الأحذية في نيويورك لديه مقاساته، ويمكنه أن يصنع له زوجين آخرين في ثلاثة أيام. وعلى أي حال، كان هناك زوجان آخران على متن السفينة «أرابيلا».

لم يكن ستانديش أحرق، وكان الأشخاص المهمون في الحي المالي سيخبرونك، إذا ذُكر اسم ستانديش، بأنه ليس أحرق.

وقد خطر بباله أنه في هذا المحيط الهادئ اللطيف كان هناك خطر واحد يترتب به - ضربة الشمس - على الرغم من أن كل شيء فيه ما عدا رأسه كان تحت الماء. كان عليه أن يحمي رأسه بأي ثمن.

أنفذ جوربا ستانديش الموقف. انحنى تحت الماء، وحرر أحدهما من رباطه وسحبه من قدمه. وبعد أن ضغط عليه بعض الشيء، تمكن من تثبيته بإحكام فوق رأسه، ثم كرر العملية مع الجورب الآخر، وصارت لديه الآن حماية مضاعفة من الشمس، على الرغم من أنه فكر بحزن في أن غطاء رأسه الحالي كان سيثير الكثير من التعليقات، معظمها غير مواتية، في الحي المالي. لكن لن يراه أحد بهذه الطريقة سوى الرب، وبعض الأسماك، حيث سينزع عن رأسه عندما تقترب منه السفينة «أرابيلا».

أدرك ستانديش أنه ظل طوال هذا الوقت يحاول تأخير خلع سترته وصدريته وبنطاله، وهو الأمر الذي لا مفر منه. ولم يكن الأمر يتعلق بفخره ببذله، بقدر ما كان يتعلق بالأشياء التي تحتويها الجيوب. لكنه قرر أن هذه المشكلة يمكن حلها من دون صعوبة كبيرة. سيُخرج كل شيء من جيوبه، ويضع أغراضه المختلفة داخل محفظته المبللة بالماء. وبعد ذلك يمكنه الإمساك بالمحظة أو، الأفضل من ذلك، ربطها في سرواله ذي اللونين الأزرق والأصفر. كانت هناك حلقة لضبط المقاس في الجزء الخلفي من سرواله، يمكن ربط المحظة تحتها بإحكام.

نظر ستانديش إلى السفينة «أرابيلا» من بعيد، فلم تبدُ أكبر من زورق. ثم نظر إلى السماء، فبدت عظيمة بقدر شجاعة الإنسان، وامتد البحر أوسع من أمّاله. عندما رأى ستانديش الماء من الممر الممتد بين طابقي السفينة «أرابيلا»، بدا رماديًا مزرقا، أما الآن وقد أصبح هو وسط الماء وقد تقدم النهار، فقد بدا أخضر مزرقا.

أخرج ستانديش محفظته، وبشئ من الصعوبة تقدّم محتوياتها، حيث لم يستطع مقاومة فضوله. كان الإمساك بالمحظة وذراعه ممدودة، وإبقاء جسده طافيًا في الوقت نفسه، يمثلان جهدًا كبيرًا، لكن الأمر كان يستحق الجهد المبذول.

في أحد جيوب المحظة، كانت هناك مجموعة من بطاقات الحانات السرية (٣) القديمة محفوظة معًا بعناية بواسطة شريط مطاطي. وقد صارت هذه البطاقات عديمة الفائدة تمامًا منذ سنوات عديدة في نيويورك، ولم يعرف ستانديش قط لماذا حملها معه كل هذه المدة، ربما لأنه قضى وقتًا طويلًا من فترة مغازلته لأوليفيا في أماكن الشرب السرية المبهجة تلك. لكن إذا كانت عديمة الفائدة في نيويورك، فقد صارت عديمة الفائدة بشكل مضاعف في وسط المحيط الهادئ! أجهّد ستانديش ذهنه للتفكير في شيء عديم الجدوى بدرجة أكبر في وضعه الحالي، لكنه قرر بعد لحظات قليلة أن هذه مهمة مستحيلة.

بدأ الأوراق الأخرى في المحظة مثيرة للاهتمام بنفس القدر. تبطلت الشيكات السياحية التي تبلغ قيمتها خمسمائة دولار، لكن لا شك أن البنك ستكون لديه تدابير لاستبدالها. تخيل أنه لن يواجه صعوبة في الحصول على شيكات جديدة بعد أن يشرح سبب تبطلها. أما دفتر العناوين الصغير الذي احتفظ به لمدة خمس سنوات، فسيكون خسارة كبيرة إذا أصبحت صفحاته غير مقروءة، وسيستغرق الأمر شهرًا عديدة للحصول على العناوين من جديد. أما بطاقات العضوية في النادي المالي، والنادي الرياضي، ونادي الجولف في وبيونيك، ونادي بيل، فلم تكن هناك مشكلة بشأنها، ولا شك أن مديري تلك المؤسسات المختلفة سيسعدونهم بمنحهم بطاقات عضوية ذات حواف مذهبة بدلًا من البطاقات القديمة، بعد أن يعلموا بتجربته الغريبة.

لكن ستانديش انزعج من تلك الصورة التي التقطتها والدته له هو وأوليفيا والطفلين في آخر مرة زاروا فيها أورانج، وكان ذلك منذ خمسة أشهر تقريبًا. نظر إليها فترة طويلة، وحاول أن ينفذ عنها الماء، وتساءل عما يفعلونه جميعًا في هذه اللحظة بعيدًا جدًا على اليابسة.

كان من بين محتويات المحظة إيصال إيجار قديم، وعدة قصاصات من الورق لم يستطع تحديدها ماهيتها، ودفتر طوابع من فئة «ثلاثة سنتات». لم يفكر ستانديش في هذه الأشياء كثيرًا. أخرج مفاتيحه ونقوده وقلم الحبر والمشط ومبرد الأظفار ونظارة القراءة من الجيوب المختلفة لسترته وصدريته وبنطاله، ووضعها بعناية داخل المحظة. بعد ذلك، تنفس الصعداء، وأمسك المحظة بقوة في يده اليمنى، وخلع سترته. ثم فك أزرار صدريته وتخلص منها، وأزاح الحملتين عن كتفيه، وتخلص من بنطاله. طفا البنطال بعيدًا على الفور، لكن السترة والصدرية تمايلتا بالقرب منه فترة من الوقت قبل أن تتعدا. وأخيرًا، انتزع ستانديش قميصه، وهو مصنوع من القماش الإنجليزي الأبيض عالي الجودة، وألقاه بعيدًا عنه.

أحس بالتعب بعض الشيء من كل هذا الجهد، لكن عندما ثبتت المحظة في حلقة سرواله ثم استلقى على ظهره، كما كان يفعل في شبابه، استعاد قوته بسرعة. أخذ أنفاسًا منتظمة، وملا رنتيه بالهواء النظيف الخالي من الغبار. ولم يكن في ذهنه أي خوف، أو أي شعور بالقلق بسبب مازقه، بل شعر بالتعجب فقط من مدى الاتساع الشاسع

للأشياء. كما إزعج بعض الشيء، لأن السفينة «أرابيلا» لم تستدر بعد، ولم يُعد حجمها يبدو أكبر من برميل الآن، لكنه كان متأكدًا أنها ستفعل ذلك في أي لحظة. استلقى ستانديش خاملًا في الماء، يتمايل برفق وسط الأمواج الهادئة، وشعر براحة كبيرة.

- انتابني شعور مذهل بالراحة وأنا مستلق هناك في وسط المحيط. شعور مختلف تمامًا يا أوليفيا، عن السباحة بالقرب من الشاطئ. لا أعرف كيف أصف ذلك، شعرت نوعًا ما بأنني أحر شخص في العالم. كان الأمر مثيرًا حقًا، وأنا أراقب تلك السفينة وهي تبتعد أكثر فأكثر، من دون أن أعرف حقًا ما إذا كانت ستعود من أجلي. لا يمكنني أن أبدأ حتى في وصف مدى اتساع الأشياء هناك، وعظمة وضخامة الماء والشمس والسماء.

بطريقة ما، خطرت في ذهن ستانديش كلمات أغنية قديمة كان يغنيها في أيام المدرسة. لم يُغنِّ الأغنية الآن، بل دندن اللحن فقط، لكن الكلمات كانت في ذهنه:

لم تجد ساعة جدي على الرف مكانًا،

فبقيت على الأرض تسعين عامًا.

فاقت العجوز نفسه طولًا بمقدار النصف،

لكنها لم تُفقه وزنًا، ولو زنة بنس.

اشترت من متجر الرهونات

يوم مولده،

ولطالما كانت مصدر فخره وعزه.

لكنها توقفت

فجأة

ولم تعمل بعدها قطُّ

عندما... مات... العجوز.

بينما هو يطفو على سطح الماء، ركز ستانديش أفكاره على الأشخاص الذين على متن السفينة «أرابيلا»، ونتيجة لذلك وقع في الخطأ الشائع المتمثل في الاعتقاد بأن العكس أيضاً صحيح. لكن حقيقة الأمر كانت أن الناس الطبيعيين على متن السفينة «أرابيلا» لم يفكروا في ستانديش تقريباً.

كان الطباخ الزنجي، الذي تتدفق فيه رغبة أصيلة في اللطف، آخر من رأى ستانديش، وبعد أن ألقى عليه تحية الصباح حين توقف في الممر، عاد الطباخ إلى مهمته المتمثلة في إعداد طعام اليوم. وكان في إمكان الطباخ أن يستنتج بقليل من المنطق أن هناك خطباً ما، لكنه لم يفعل. كان يتعلق الأمر بالبيض. كان الإفطار يُقدّم من الثامنة إلى التاسعة والنصف، لكن الجميع دائماً ما كانوا يحضرون إلى غرفة الطعام في الثامنة تماماً. وكان ستانديش يُفضّل البيض المسلوق من دون قشر، مثل والده، وكذلك والد والده. ولم يكن ستانديش يُفضّل البيض المسلوق من دون قشر فحسب، بل كان الوحيد الذي يُفضّله على متن السفينة «أرابيلا». في أول إفطار، عندما طلب ستانديش البيض المسلوق من دون قشر، همهم الطباخ متذمراً، فلم تكن هناك أدوات مخصصة لسلق بيض بهذه الطريقة على متن السفينة، واضطر إلى استخدام مقلاة ضحلة لإنجاز المهمة. لكن بعد أن تحدث إلى ستانديش في وقت لاحق ووجده رجلاً لطيفاً، لم يمانع الطباخ حقاً. وفي هذا الصباح لم يطلب ستانديش أي بيض. غير أن الطباخ سلقه من دون قشر في الساعة الثامنة وعشر دقائق، ووضعه في الفرن ليبقى دافئاً إلى أن يُحضره النادل إلى غرفة الطعام مع الطلبات الأخرى. رفض النادل، الذي لم يكن في الحقيقة شخصاً ذكياً للغاية بسبب مزيج من العوامل التربوية والوراثية، أن يأخذها، وتمتم بشيء ما عن أن ستانديش لم يستيقظ بعد لتناول الإفطار. وبطريقة ما، لم يرَ الطباخ أي مغزى في تلك العبارة التي نطقها على نحو غير واضح. كان ينبغي أن يعمل عقله بشدة، وكان عليه أن يعرف أن ستانديش رجل منهجي يتناول إفطاره دائماً في نفس الساعة. لكن الحقيقة أنه لم يفكر في ذلك. وعلاوة على هذا، فإنه لم يشعر حتى بالندم الشديد على إهدار البيض، حيث كان البيض ملكاً للسفينة «أرابيلا»، ولم يدفع من جيبه شيئاً. ولم تكن هناك طريقة أخرى للتحقق من الأمر، إذ كانت بقية الطعام تقدّم جماعياً. قرر الطباخ، في مكان ما في مؤخرة عقله، أن ستانديش تأخر عن الإفطار، واستغنى عن بيضه المسلوق. وفي الساعة العاشرة تقريباً، ألقى الطباخ البيض مع القمامة الأخرى في المحيط، من نفس البقعة التي ألقى منها القدر ستانديش.

ركز الركاب المتجمعون لتناول الإفطار انتباههم على الفرقة الداخلية لبطونهم. وبالتأكيد، لم تفكر السيدة بنسون في ستانديش، ولو سُئل ستانديش نفسه، لقال إنه من غير المنطقي توقع أن تفكر فيه السيدة بنسون. حيث كان إطعام أربعة أطفال صغار، عصير البرتقال والشوفان والبيض والحليب، مهمة شاقة، حتى مع وجود نادل بالقرب منهم للمساعدة. وإذا كانت السيدة بنسون تفكر حقاً في شيء ما، فسكون رغبتيها في الاستقرار في بنما مع السيد بنسون، في منزل حيث يمكنهما إنشاء نوع من الروتين للأطفال.

كان جيمي الصغير مزعجاً جداً هذا الصباح، إلى درجة أن السيدة بنسون تخلت أخيراً عن محاولة إقناعه بأكل الشوفان. لكن نظراً إلى كونها أمّاً حكيمة وصارمة، عاقبته بحبسه في مقصورته لمدة ساعة بعد الإفطار. وكان هذا أمراً مؤسفاً بالفعل، إذ كان من عادة جيمي أن يبحث عن ستانديش كل صباح بعد الإفطار، ويطلب منه اللعب، وهو طلب لم يرفضه ستانديش قط، على الرغم من أنه كان يتهرب بطريقة ما من المشاركة الفعلية في ألعاب الصبي الشاقة. بناءً على أمر والدته، ذهب جيمي على الفور إلى مقصورته، وبدأ في العوبس. وعلى طريقة الأطفال، ترك العقاب يتنامى في ذهنه، وبعد ساعة بدأ الأمر يعجبه. مكث في المقصورة ساعتين يفكر في طرق لتعذيب أمه، وعندما جاءت أخيراً وسحبته إلى خارج المقصورة بال قوة، بدأ طفلاً يتألم بشدة ويحتاج إلى التعاطف، فظل صامتاً متجهماً الوجه. رفض أن يلعب مع أي من الأطفال الآخرين، وأمضى الساعة التالية وهو يتجول ويعض على شفتيه، وبدا مريضاً وشاحباً، إلى درجة أن السيد ترافيس، كبير المهندسين، شعر بالأسف عليه عندما صادفه في الممر. قال له السيد ترافيس:

- أتمنى لك صباحاً طيباً أيها الشاب الصغير.

لكن عندما ردّ عليه جيمي، الذي نشأ في هدوء ضواحي هونولولو المزهرة، وقال باقتضاب:

- مجنون!

فهم السيد ترافيس عمق معاناة الصبي، لأنه هو أيضاً عاش حياة تعيسة. قال السيد ترافيس من دون أن يتقاجأ على الإطلاق برد جيمي غير المهذب:

- ما رأيك أن تكون كبير المهندسين لفترة من الوقت وتدير السفينة؟

كان ستانديش سيترف، لو عُرض الأمر عليه، مع الأخذ في الحسبان شخصية جيمي وخلفيته وعمره، أنه لم يكن هناك خيار آخر أمام الصبي سوى الخروج من حالة الكآبة التي أصابته، ورسم ابتسامة عريضة على وجهه، وإمسك بيد السيد ترافيس القوية، والانطلاق بكل سرور عبر الدرجات المشحمة للنزول إلى أعماق السفينة. هناك قضى جيمي أمتع ساعتين في حياته الصغيرة، وعندما عاد أخيراً إلى سطح السفينة كان عقله مشغولاً بالعجلات وأجهزة القياس والمعدات، إلى درجة أنه لم يفكر في ستانديش بقية اليوم.

وقد اقترب نات آدمز العجوز من اكتشاف غياب ستانديش أكثر من الآخرين، والشيء الوحيد الذي حال دون ذلك هو إدراك نات أنه رجل ريفي يعمل في الأرض، في حين أن ستانديش جنّلمان من أهل المدينة. فمنذ البداية نشأت بين الرجلين صداقة تطورت إلى أخوة يشوبها شيء من الحزن، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى الخجل والتحفّظ في شخصيتي كليهما. رأى ستانديش في هذا المزارع ذي البشرة المغضنة القادم من نيو إنجلاند استقلالية الروح، وبساطة العقل التي كان يتمتع بها أسلافه. كما نظر نات إلى ستانديش باحترام، ورأى فيه صورة المدينة العظيمة الراقية بكل ما فيها من تحضر وأناقة. وشعر بالفخر، لأن ستانديش وجد الكثير من القواسم المشتركة معه، ولأنه شعر سرّاً بأنهما متباعداً تباعد القطبين. وفي اليوم الأول من الرحلة، أراد نات أن يبدأ محادثة مع ستانديش، حيث إن مجرد النظر إليه، وهو يرتدي بدلته الرسمية المحافظة التي بدت عليها خياطتها المميزة، أثار اهتمام المزارع العجوز وحماسه. لهذا السبب كان يسافر بلا هدف، لمقابلة الرجال من أمثال ستانديش، والتحدث معهم، والتعرف منهم على كيفية سير أمور العالم خارج أراضي نيو إنجلاند الزراعية. لكن نات كان يعلم منذ البداية أنه لا يمكنه الذهاب إلى ستانديش، بل يجب أن يأتي إليه ستانديش. وكان هذا بالضبط ما فعله ستانديش، فقد وجد عذراً مذهباً، وكسر الجليد، وسرعان ما أصبحا صديقين. بقياً معاً أحد عشر يوماً، وكان ستانديش يستمتع إليه في الغالب، ودائماً ما كان يجد حديث المزارع العجوز ممتعاً. لكن ستانديش كان هو الذي يذهب إلى نات دائماً، وأدرك نات أن ستانديش هو الرجل الأممي مكانة خارج مناطق نيو إنجلاند الريفية. بعد ذلك، في الليلة الثانية عشرة في البحر، وهي الليلة التي سبقت صباح يوم حادث ستانديش، وقف نات وحده على سطح السفينة يحدق إلى نجوم السماء، وفجأة وجد فكرة ذكية رائعة تتداعى إلى ذهنه. لن يعود إلى نيو إنجلاند بالسفينة كما خطط، لكن عندما تصل السفينة «أرابيلا» إلى بنما، سيسافر عبر أمريكا الوسطى بالسيارة، وصولاً إلى المكسيك، ثم من تكساس إلى نيو إنجلاند بالقطار. كانت الساعة السابعة والنصف فقط، وشعر نات بأن عليه أن يخبر أحداً عن هذه الفكرة، حيث كانت أفضل من أن يحتفظ بها لنفسه. لذا سعى إلى البحث عن ستانديش في لحظتها، على الرغم من أنه كان لا يزال لديه بعض التردد في أعماقه. كان ستانديش في مقصورته يكتب رسالة إلى أوليفيا، وقد نوى إرسالها إلى نيويورك بالبريد الجوي من بنما. طرق نات الباب، وندم على الفور لأنه فعل ذلك. لكن عندما فتح ستانديش الباب ورأى من يكون، تلاشت معظم شكوك نات. سعد ستانديش حقاً برؤية نات، فدعاها إلى الدخول، وجعله يجلس، واستمع بانتباه بينما نات يشرح خطته الجديدة. ابتسم ستانديش وهو يحسد المزارع السعيد، وأخبره بأنه لا يعرف الكثير عن وسائل النقل في أمريكا الوسطى، لكنه يتخيل أنه لن تكون هناك طرق كثيرة، وأن الرحلة قد تكون شاقة. وقال ستانديش إنها ربما تكون خطيرة حتى، لكن نات ضحك وسأله:

- من سيرغب في إيذاء رجل عجوز مثلي؟

تحدثنا لمدة نصف ساعة على الأقل، ثم اعتذرت عن اقتحامه خلوة ستانديش من دون دعوة، وعلى الرغم من احتجاجات ستانديش الصادقة، تمنى له ليلة سعيدة وانصرف. لكن نأت ظل يفكر في الرحلة طوال الليل، ولم يتم على الإطلاق، بل اغمض عينيه وحلم في سرور بالحقول الخضراء والسكان الأصليين الذين يرتدون أزياء غريبة، والأطعمة ذات المذاق الحار. وقبيل الفجر غفنا، لكن عندما استيقظ في السابعة والنصف كان متلهفاً للتحدث مع ستانديش مرة أخرى عن الرحلة. خطرت في ذهنه أفكار جديدة في أثناء الليل، حتى إنه ربما يستأجر مرشداً وحصاناً وعربة، ويذهب في رحلة عبر أمريكا اللاتينية بهذه الطريقة. كان نأت آدمز يعرف الكثير عن التعامل مع الأحصنة، وقد يمكنه القيام بذلك. شعر بخيبة أمل مريرة لعدم رؤية ستانديش على مائدة الإفطار. وبعد إفطاره الشهى راح نأت يمشي جينياً وذهاباً على سطح السفينة، وأخيراً شعر بأنه يجب أن يرى ستانديش. بحث عنه في جميع أنحاء السفينة، وفي النهاية قرر أن يطرق باب مقصورته. وقف أمام الباب لحظة طويلة وقبضته مرفوعة وجاهزة للطرق، لكن إحساناً بالخلج غلب على المزارع الطيب القادم من نيو إنجلاند. يا لها من وقاحة منه أن يزجج ستانديش! كان ستانديش نائماً، وها هو ذا يخطط لإيقاظه. لماذا لا يهتم بشؤونه الخاصة، كما اعتاد أن يفعل دائماً، ويكف عن إزعاج الغرباء؟ ابتعد نأت على أطراف أصابعه، وهو يعض على لسانه بأسنانه الصناعية. استعار خريطة لأمريكا الوسطى من الضابط الثالث، وانعزل في مقصورته الخاصة، ورسم على الخريطة خطوطاً رفيعة بالقلم الرصاص لرحلة لم يقم بها قط. ثم مسح الخطوط لاحقاً، لأن الخريطة لم تكن تخصه. وفي وقت الغداء كان سعيداً حقاً أن ستانديش لم يكن في غرفة الطعام، حيث قرر أن ستانديش كان يجده مصدر إزعاج هائل، ولم يتحمل ثرثرته الصبيانية بصبر إلا لأنه رجل مهذب.

وكان الأمر نفسه بالنسبة إلى الآخرين، فقد ظن الجميع أن ستانديش موجود في مكان آخر على متن السفينة من دون أن يفكروا فيه حقاً. ولو كان في إمكان ستانديش أن يختار من المجموعة شخصاً واحداً على وجه الخصوص ليغضب منه، لكان الفائز يمثل هذا الشرف المريب هو النادل. كان هذا النادل نفسه الذي أخبر الطباخ بأن ستانديش لم يكن جاهزاً بعد لتناول البيض المسلوق، هو المسؤول عن مهمة تنظيف مقصورات الركاب. وقد عوض ما يفقر إليه من الذكاء بقدرته العنيدة على الكدح في العمل. وعند وصوله إلى باب مقصورة ستانديش نحو الساعة العاشرة، طرق الباب تلقائياً تحسباً لأن يكون ستانديش لا يزال بالداخل. وعندما وجد أن ستانديش لم يكن بالداخل، كالعادة، دخل باحترام وبدأ تنظيف الغرفة. ولم يخطر بباله قط أن غياب ستانديش عن غرفته وعن مائدة الإفطار يعني أن هناك خطباً ما. وبما أن اليوم كان يوم الأربعاء، فقد غير النادل الملاءات وأغطية الوسائد. وعندما رتب الفراش بملاءاته النظيفة، وأفرغ منافض السجائر، وكنس الغبار من زوايا الغرفة، ملأ النادل إبريق الماء، ووضع قطعة صابون جديدة على المغسلة، ومناشف نظيفة على الرف. ثم التقط البدلة البنية التي تركها ستانديش ملقاة على الكرسي ونظفها بعناية، وأعادها إلى شماغتها في صندوق الملابس الذي كان مفتوحاً جزئياً. أما القميص المتسخ والملابس الداخلية والمناديل التي كانت ملقاة أيضاً على الكرسي، فقد وضعها في الدرج السفلي للصندوق. وكانت هناك ربطة عنق ملقاة على مسند الكرسي، وهي ربطة عنق زرقاء كلاسيكية منقطة بالأبيض. نظر النادل إلى ربطة العنق بخبث، لكنه في النهاية تنهد بهدوء، وأمسكها برفق بين الإبهام والسبابة حتى لا تتسخ، ثم أعادها إلى رفها المناسب في الصندوق. وأخيراً جالت عيناه في الغرفة، وقرر بشعور أبه من الرضا عن النفس أن الغرفة كانت مرتبة ونظيفة حقاً، ولا يمكن لأي نزيل أن يرغب في خدمة أفضل من هذه الخدمة، إلا إذا كان مهووساً. خرج بهدوء، وأغلق الباب خلفه برفق، ثم دخل غرفة نأت آدمز، ولكنه وجده جالساً شارداً على كرسي، يرسم خطوطاً غريبة على خريطة.

كان من الغريب أن حدث لقاء بالمصادفة بين السيدة بنسون والسيد والسيدة براون بعد الإفطار بساعتين تقريباً. كانت السيدة بنسون من الرؤاد المتحمسين لحوض السباحة على متن السفينة «أرابيلا»، وكذلك كان ستانديش. لكن كانت للسيد والسيدة براون فكرتهما الخاصة عن السباحة والاعتسال، إذ كانا يعتقدان أن ذلك الأمر الأخير شيء يجب أن يتم بين باب مغلق ونافذة زجاجية، في حين أن الأول كان حكرًا حصريًا على المشاركين في أشكال معينة من الأعمال التجارية، مثل الغوص بحثاً عن اللؤلؤ. وكانا يكرهان على وجه الخصوص ملابس السباحة الحديثة، وعلى الأخضر ثوب السباحة الأحمر الذي ترتديه السيدة بنسون بازدراء شديد للتقاليد القديمة. واشتعل السخط في صدرهما كلما شاهدا، لأنه لم يكن هناك مقر من رؤيته عندما يصبح في مجال نظريهما.

وفي هذا الصباح خلعت السيدة بنسون ثيابها، وارتدت ثوب السباحة في تمام الساعة العاشرة، وتوجهت بمرح إلى حوض السباحة من دون ارتداء روب. شعرت بخيبة أمل كبيرة عندما لم تجد ستانديش هناك، حيث كان يصل إلى حوض السباحة دائماً في العاشرة في الأيام السابقة. وبعد أن غطت وسبحت وحدها لمدة عشرين دقيقة، لمحت فجأة السيد والسيدة براون يجلسان معاً على كرسيين على سطح السفينة. وكان السيد والسيدة براون يتشاركان عدداً قديماً من صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور»، ويحاولان جاهدين ألا يفكرا في ثوب سباحة السيدة بنسون. لكن السيدة بنسون لم يكن لديها أدنى فكرة أنها تثير استياءهما. ومن دون تفكير، فقزت من حوض السباحة وهي تقطر ماءً، وهرعت إلى السيد والسيدة براون.

سألتهما:

- هل رأيتما السيد ستانديش في أي مكان في الجوار؟

رمقها السيد والسيدة براون باستياء. تساقط الماء على فخذيها ليشكل بركة عند قدميها، والتصق ثوب السباحة المبلل بجسدها ليبرز قوامها الأنثوي، الذي كان كل من السيدة بنسون والسيد بنسون الغائب فخورين به بحق. بعد سنوات من العمل التبشيري بين الصينيين، تعلم السيد والسيدة براون أن يتعلمتا استياءهما في مواجهة الحوادث غير السارة. وهكذا حدثت السيدة براون إلى السيدة بنسون بوجه خالٍ من التعبير، بينما نظر إليها السيد براون بعينين تحاولان ألا تريا من كتب ما لا يمكن لأحد تجنبه وهو يوجه السيدة بنسون بثوب السباحة خاصتها.

في اللحظة التالية، قال السيد براون:

- اعتقد أنني رأيته منذ قليل في المكتبة.

وعندما حلل السيد والسيدة براون هذه العبارة سراً فيما بعد، قررا أن السيد براون ارتكب خطأ، وظن أن نأت آدمز الجالس في غرفة القراءة هو ستانديش. ولم يعترف السيد والسيدة براون قط، ولا حتى أمام نفسيهما، بأن هذه العبارة كانت ملفقة بالكامل، اخترعت لغرض وحيد هو التخلص من السيدة بنسون.

شرعت السيدة بنسون في التوجه إلى غرفة القراءة، التي كانت في ركن من أركان غرفة الطعام، لكن في تلك اللحظة جاءت الصغيرة جلابيس تتعثر في الممر وهي ترتدي ثوب السباحة خاصتها، الذي كان أحمر اللون أيضاً، وهي تصيح بأنها تريد تعلم السباحة، فعدت السيدة بنسون إلى حوض السباحة مع ابنتها. وفي وقت لاحق بحثت في المكتبة، لكن ستانديش لم يكن هناك.

مضى النهار حتى حلت فترة ما بعد الظهر، وترينت السماء بالوان فاقت روعتها أي شيء سبق خلال تلك الرحلة. واجتمع الركاب فرادى أو أزواجا لتناول الغداء، فأكلوا، ثم تفرقوا للحصول على قبولة ممتعة أو لبعض القراءة الهادئة. وعند الساعة الثالثة تقريباً، بدأ السيد بريسيك يشعر بالقلق. لم يكن هناك شيء يستطيع تحديده، لكنه أدرك أن هناك خطباً ما. وقف وحده فترة طويلة على سطح السفينة، وتساءل ما الأمر. وفجأة قفز اسم ستانديش إلى ذهنه، وأدرك أنه لم ير ستانديش طوال اليوم، لا على الإفطار، ولا على الغداء، ولا في أي مكان آخر على متن السفينة. وعلى الفور انتابه حذر بأن ستانديش اختفى. ففكر في الأمر بعناية: لماذا خطر اسم ستانديش في ذهنه من دون سبب؟ كان هناك سبب لكل شيء، كما يعرف كل بحار من واقع خبرته. لم يكن من المهم كيف طرأ الاسم على ذهنه، سواء كان ذلك عن طريق المصادفة أو بقصد إلهي أو انفجار الأحاسيس المتركمة، فالحقيقة أن الاسم طرأ على ذهنه فحسب.

كان السيد بريسيك رجلاً حذراً في كل شيء، وبدأ البحث بشكل منهجي، لأنه لم يكن هناك شيء يكرهه السيد بريسيك أكثر من إزعاج القبطان بيل بتقارير كاذبة. فقرر أن يقضي ساعة على الأقل في محاولة إثبات أن ستانديش لم يخنق، وإذا ما اقتنع في النهاية بأن الحقائق تشير إلى نتيجة معاكسة، فسيتبلغ القبطان الخبر على مضض. في البداية بحث السيد بريسيك داخل مقصورة ستانديش. ثم فتش السفينة «أرابيلا» من مقدمتها إلى مؤخرتها بطريقة لم يكن من الممكن أن يفوته معها العثور على ستانديش

إذا كان على متنها خلال ذلك الوقت. ثم استجوب جميع الركاب، كلا على حدة (باستثناء السيد والسيدة براون اللذين استجوبهما معًا) من دون إثارة أي انفعال لا مبرر له، أو الكشف عما بدأ يشك فيه الآن. اعترفوا جميعًا، باستثناء السيد براون، بأنهم لم يروا ستانديش منذ المساء السابق. قال السيد براون:

- أعتقد أنني رأيته في غرفة القراءة في الساعة التاسعة والنصف تقريبًا، أم هل كان السيد آدمز؟

تأكد السيد بريسيك أنه كان السيد آدمز. ثم استجوب الضباط والطاقم، وأيقظ من كانوا نائمين. وأخيرًا، علم أن الطباخ تحدث إلى ستانديش قبل شروق الشمس. سار السيد بريسيك عبر الممر، ووقف لحظة طويلة عند الباب المفتوح الذي عبر ستانديش عتبته قسرًا. أخيرًا، هز السيد بريسيك رأسه بحزن وتنهَّد. سيعني هذا الأمر مشكلات لا نهاية لها، لكنه كزَّ على أسنانه. كان على رب الأسرة أن يتسم بالخنوع في بعض الأحيان، ولن يكون هو رب الأسرة الوحيد في العالم الذي يتقبل الإهانة.

انشغل القبطان بيل بصنفرة مركبه الشراعي ذي الصواري الأربعة عندما دخل السيد بريسيك.

سأل من دون أن يرفع نظره:

- ما الأمر يا بريسيك؟

- هناك رجل مفقود يا قبطان، السيد ستانديش، أحد الركاب.

توقف القبطان بيل عن الصنفرة:

- ماذا تعني بمفقود!

- على حد علمي لم يره أحد منذ الساعة الخامسة هذا الصباح.

- الساعة الخامسة! ما هذا الهراء الذي تقولُه؟ هذه عشر ساعات!

- أعرف يا قبطان.

- فُتِّش السفينة.

- لقد فعلت.

- هل استجوبت الجميع؟

- نعم يا قبطان.

وضع القبطان بيل ورق الصنفرة بغضب:

- هراء! من المحتمل أن يكون في غرفة المحركات في مكان ما. اللعنة يا بريسيك، لماذا تزعجني بهذه التقارير الغبية؟ أوه، حسنًا، تعالَ معي، أعتقد أنني يجب أن أفُتِّش السفينةَ وأعثر عليه.

أخذت السفينة «أرابيلا» تصغر أكثر فأكثر في الأفق، وأحس ستانديش فجأة بقلبه يوغوص في صدره. أثار هذا غضبه، لأنه كلما صادف عبارة كهذه في كتاب قصصي، كان يشمئز ويولم المؤلف على ركاكة الوصف. لكن الحقيقة ظلت قائمة، كما اضطر إلى الاعتراف لنفسه، وهي أن أيًا كان ما يشكل الجزء الداخلي من قلبه بدا فجأة كأنه يوغوص بدرجة أو بأخرى إلى النقطة التي تقع فيها معدته.

ولا يعني ذلك أن أي خوف طاع تغلب عليه: ضحك باقتضاب على هذه الفكرة. شعر بأنه يستطيع الصمود هناك ساعات، وهو الأمر الذي كان متأكدًا أنه لن يكون ضروريًا. لكن بين الحين والحين وجد نفسه يفكر: «الشجاعة يا رجل، تحل بالشجاعة!».

دفعت هذه النوبات من الهمس الداخلي ستانديش إلى الغضب من نفسه أخيرًا. من بين جميع الأخطاء الغبية منذ الأزل، قرر بسخط شديد أن السقوط من السفينة في وسط المحيط كان أكثرها غباءً على الإطلاق. كان الأمر في غاية الغباء، ومن دون سبب أو سابقة بتاتًا، ومن غير المناسب لرجل يمثل مكانته لفترة من الزمن، كز ستانديش على أسنانه في نوبة من السخط والعجز. لم يكن أحد ممن يعرفونه يتوقع منه أن يفعل شيئًا كهذا. ستعلن عمته كلارا أن هذا أمر غير محتمل الحدوث مطلقًا. ولو أن عائلته، التي تضم بعض النماذج الجامحة من الرجال والنساء الذين يملكون الكثير من المال والفراغ، قد اجتمعت معًا، وأجرت تصويباتًا على من منهم كان من المرجح أن يسقط من السفينة، لما صوت أحد منهم لصالحه. وما هو ذا الآن في هذا المأزق الصعب، والسفينة «أرابيلا» تبتعد أكثر فأكثر.

وكما هاجمه الغضب فجأة، زال عنه فجأة، وحل محله شعور بالاستسلام على نحو معقد ومغالي فيه إلى حد ما. ما هو ذا وسط المحيط المالح، وسيتعين عليه التعامل مع الموقف بأفضل ما في وسعه حتى يُنقذ، فلم يكن هناك أي معنى لإهدار قوته في لعن مصيره.

وإذا لم يُنقذ - نظر مرة أخرى ورأى أن السفينة «أرابيلا» صارت مجرد نقطة صغيرة في البحر - فسوف يغرق. ولأول مرة، فكر ستانديش في مشكلة الفرق بالتفصيل. في البداية، فكر في احتمالات عدم إنقاذه، وقرر أن ذلك ممكن. ثم فكر في أنه لو قدر له أن يغرق، سيغرق، هذا كل ما في الأمر. كان الأمر بسيطًا جدًا، ولم يكن هناك أي معنى للتصرف على نحو ميلودرامي بشأن هذا الموضوع، والضرب على صدره في احتجاج لا طائل منه. لن يكون الفرق أمرًا فظيلاً لو أن الرجل تصرف بعفوية، من دون أن يفتقد صوابه، وبعد وفاته سينتهي الألم. بالطبع لم يكن يريد أن يغرق، وكان هناك الكثير من الأشياء التي أراد الاستمرار في العيش من أجلها. لكن على حد علمه، ربما كان يغرق بالفعل في هذه اللحظة، وإذا لم تستدر السفينة «أرابيلا» للانقضاء، فيمكن القول إن الأمر كذلك حقًا. أغمض ستانديش عينيه وحبس أنفاسه. وبحسب كل ما قرأه وسمعه، فإن الغريق يرى حياته كلها تمر أمامه في استرجاع لماضيه. انتظر ستانديش بصبر حدوث شيء ما، لكنه لم يتمكن من استخلاص حادثة واحدة من ماضيه. غضب نوعًا ما لأنه لم يزل أي شيء من الماضي، ففي نهاية المطاف، كان رجالًا عاديًا، وإذا كان الرجال العاديون الآخرون يرون أشياء من الماضي، فقد أراد رؤيتها هو أيضًا. لكن في اللحظة التالية، أسعده ذلك، فربما يعني هذا أنه لم يكن يغرق. بالطبع لم يكن يغرق!

تمعن ستانديش في السماء الرتيبة، وفجأة تبادر إلى ذهنه اسم سفينة الشحن الإسكندنافية التي مرت بـ«أرابيلا» متجهة في الاتجاه المعاكس نحو هاواي. كان من المدهش كيف حدث ذلك، فلم يكن يفكر ولو من بعيد في اسم سفينة الشحن، وما هي ذي قد طرأت على ذهنه الآن، مع اسمها المنسي. «إنجريد»، كان هذا هو اسمها. ربما تتقده «إنجريد» إذا لم تفعل «أرابيلا». لكنه كان يعلم أنه لا توجد فرصة لحدوث ذلك أبدًا، وفجأة وجد نفسه يفكر: «ستانديش... ستانديش... لا تتدع نفسك بالأمال الفارغة». ثم شعر بالتعاسة مرة أخرى.

فكر في الركاب الذين على متن السفينة «أرابيلا». من المؤكد أنهم لاحظوا غيابه. لقد رآه الطباخ ينزل إلى الممر ولم يره يعود، ومن المؤكد أن الطباخ سيبلغ عن غيابه وسيلاحظ النادل أنه لم يطلب أي فطور، كما سيرى أنه لم يكن في مقصورته، بالتأكيد سيرى ذلك. وكذلك العجوز نات آدمز، كان على يقين من ذلك! حتى إذا شك في الآخرين، ففي إمكانه الاعتماد على نات. كان نات يبحث عنه في هذه اللحظة على الأرجح، والقلق يساوره بشدة أيضًا. سيبلغ نات السيد بريسيك عن غيابه في أي لحظة الآن، وبعد ذلك سيتعين عليهم أن يبدروا السفينة للبحث عنه. كان هذا قانونًا بحريًا غير مكتوب. حتى لو لم يكن القبطان بيل يحبه، وحتى لو لم يرغب في أن يزعجه أحد، فسيتعين عليه أن يفعل ذلك. كان الأمر الزامياً. أوه، والسيدة بنسون، كان لديه يقين مطلق بشأنها. ستفتقده في وقت لاحق في حوض السباحة، لكن جيمي الصغير، جيمي الصغير الطيب، سيفتقده بعد الإفطار مباشرة عندما يناديه لياخذه في جولة مرحة حول سطح السفينة. جيمي الصغير الرائع، أفضل طفل في العالم كله. كان يقينه بشأن جيمي مضاعفًا، مثل يقينه بشروق الشمس كل يوم.

وفي الحال سرت في جسده رغبة شديدة في الحياة. تسارع نبضه بسبب انفعاله بذلك الشعور، وخفق قلبه بشدة في صدره. لم يسبق له أن أثار الموضوع اهتمامه بهذا القدر من قبل، إذ عاش حياته فحسب من دون أن يفكر في الأمر كثيرًا، وتخلل على نحو مبهم أنه سيموت بطبيعية الحال في يوم من الأيام. لكنه رأى الآن بوضوح أن الحياة ثمينة، وأن كل شيء آخر، الحب، والمال، والشهرة، كان خادعًا بالمقارنة مع الخير البسيط المتمثل في عدم الموت.

وعندما رأى ذلك، فهم فجأة المرض المحير الذي أجبره على مغادرة نيويورك. وقد ظل طوال الرحلة يفكر في الأمر على نحو مبهم، حيث كان في الواقع يخشى مواجهة السؤال بعمق أكبر من اللازم. لكنه عرف ماهيته الآن، وبطريقة ما وجد أن لديه الشجاعة لمواجهته. كان مرض الانقضاء الكامل. فخلال تلك الأيام الأربعة التي استلقت فيها خاملاً في الفراش، كانت هناك ساعة واحدة، وهي الأسوأ على الإطلاق، عندما أجهد عقله من دون أن ينجح في العثور على شيء يرغب في القيام به. أولاً، الأمور الجسدية: لم يشعر بالرغبة في الأكل، ولم يشعر بالعطش، ولم تكن له رغبات حسية، وقد شبع من النيكوتين والكحول. ولم يشعر بالرغبة في ممارسة الرياضة، لكن بالتأكيد لم يرغب في الاسترخاء أو النوم. لم يرغب في أي شيء على الإطلاق من الناحية البدنية خلال تلك الساعة، إذ كانت جميع أوتاره خاملة، إلى درجة أنه لم يكن من المهم ما إذا كانت جزءًا منه أم لا. وكانت حالته بنفس القدر من السوء من الناحية العقلية. لم يشعر برغبة شديدة في أن يرى أحدًا أو يتحدث أو «يسمّع»، ومع ذلك لم يرغب تمامًا في أن يكون وحيدًا. وكانت القدرة الإبداعية البسيطة التي يتمتع بها ستانديش - حيث كتب سوناتة في شبابه - خاملة خلال تلك الساعة، وكذلك كان عقله. فلم يرغب في الاشتغال بتعقيدات علم الجبر المتقدم مثلاً، وفي الوقت نفسه ارتعد من فكرة مواجهة يوم عمل شاق في المكتب، حيث رنين الهاتف المستمر والعملاء الذين يجبرونه على اتخاذ قرارات سريعة. دائمًا ما كان يتمكن في السابق من تبييد مثل هذه الهجمة الغامضة من خلال «دفن نفسه في العمل»، لكن في أثناء تلك الساعة كان مرهقًا جدًا بدرجة أكبر حتى من أن يتمكن من القيام بذلك. وكان الأمر نفسه من الجانب الروحي، فلم يشعر بفضول كبير حول الآخرة أو الماضي، ولا التعجب بشأن خلق العالم، ولم يرغب في الذهاب إلى الكنيسة ولا الابتعاد عنها. كان رجلاً منهاكًا تمامًا في تلك الساعة، محاصرًا في فراغ من العدم، ولهذا السبب كان الأمر فظيلاً للغاية، ولهذا اضطر إلى المغادرة.

أما الآن، صار العكس تمامًا هو الصحيح، ووجد ستانديش نفسه يقول بصوت عالٍ:

- سأعطي أي شيء مقابل سيجارة أو شراب. يا إلهي، إنني أتحدث إلى نفسي!

لكن ذلك كان صحيحًا: فكر في السجائر المبللة بالماء التي رماها مع سترته، وكم سيكون من الممتع تدخين واحدة منها. كم يمكن للنيكوتين أن يهدئ رتنيته اللتين على وشك الانفجار، وكم يمكن لجرعة من الويسكي الساخن الحارق أن تدغدغ حلقة الجاف! ولو استطاع الآن، لاستلقت على فراش ناعم، وعند رأسه وسادتان بيضاوان، وأوليفيا إلى جانبه في ذلك الثوب المصنوع من الدانتيل الذي كانت ترتديه في بعض المناسبات، وعطر جيدها بصيبيه بالدوار! سيعمل ويلعب بحماس شديد إذا تمكن من النجاة من هذا المأزق. سيصير كينيامو بشري في المكتب نهارًا، وسيشرب صدقائه المعجبون به نخبه ليلاً، للاحتفاء بشهيقته التي لا حدود لها للمتعة، في كل ليلة! وفي أيام الأحاد، سيذهب إلى الكنيسة ويصلي، وسيصبح رجلاً صالحًا وعظيمًا، لو أن الرب والقبطان بيل أنقذاه الآن.

صرخ ستانديش:

- يا قبطان بيل! يا قبطان بيل!

كان الصمت المطبق الذي أعقب هذه النوبة الهستيرية الأولى له هو أكثر الحوادث التي مر بها ستانديش كآبة. خارت قواه نوعاً ما من شدة الرعب، وبرزت تفاعله آدم في عطفه وهو يزدرج ريفه بقوة. كم بدت صرخته ضئيلة وسط هذا البحر السحيق. لا بد أن الرب يضحك منه الآن. طغى شعور بالخجل على ستانديش، ووطئ الماء بقوة، ونظر حوله ليتأكد أنه لم يسمعه أحد. لكن كل ما رآه هو الأمواج اللامتناهية للبحر الذي لا يرحم، والسفينة «أرابيلا» نقطة دقيقة في الأفق.

صارت نظرة ستانديش قاسية، وعقد العزم بشدة، في حين أصبحت السفينة «أرابيلا» مجرد نقطة في الأفق. سيستغل كل القدرات التي منحه إياها الرب ومنحته إياها تتشنته ليجتاز هذه الأزمة حياً: القدرة على التحمل، والشجاعة، والذكاء الحاد. سيحافظ على كل ذرة من طاقته، ويتقاضي ضربة الشمس، ويبقى نفسه العطش والجوع، ويبقى طاقياً ساعة بعد ساعة بلا نهاية، إذا لزم الأمر، بهمة روجه التي لا تعرف الكلال. سيفعل كل هذه الأشياء، وقسمًا بالرب سيعيش ليحكى الحكاية! لم يرغب في أي شفقة، حيث كان الخطأ خطأه وحده، ولا أحد سواه، خطأ المهرج المتمثل في الانزلاق على بقعة شحم. كان على استعداد للمعاناة من أجل الأمر، لكنه سيعيش!

ثم حدث أسوأ شيء على الإطلاق، وقد حدث بسرعة كبيرة، إلى درجة أن ستانديش فوجئ به! أدرك أنه يشعر بالعطش. ولم يدر كيف بدأ الأمر، لكنه اشتبه في أنه شعر بالعطش بينما هو يفكر في أنه يجب عليه تفادي ذلك. وسرعان ما بدأ يلوم نفسه، لأنه لم يشرب الكثير من الماء قبل سقوطه في البحر. ولم يمض كثير من الوقت قبل أن ينشغل بالتفكير في لغز الطبيعة العظيم فيما يتعلق بعدم التناسب بين محتويات المحيط وصلابته للشرب. وتذكر أنه قبل أن يقوم بجولته تلك التي انتهت بغوصه في الماء، شرب فنجاناً واحداً من القهوة، بدلاً من فنجانين كما كانت عاداته. والواقع أنه كان عائداً لإحضار الفنجان الثاني عندما انزلق على بقعة الشحم. وكلما فكر في حكمة عدم التفكير في مدى عطشه، ازداد عطشاً، حتى صرخ في غضب شديد:

- فلتخرس بحق السماء! أنت لا تشعر بالظما، بل تتخيل فحسب. فلم تقض في الماء ساعتين بعد حتى...

ساد صمت رهيب مجدداً. أحبطه انفجاره الثاني ذلك: ها هو ذا يتحدث إلى نفسه بالفعل، هو، هنري بريستون ستانديش، الذي كان أسلافه عقلاء ومتميزين. بدأ ستانديش السباحة قليلاً، سباحة صدر هادئة غير مجهدة. بطبيعة الحال، سبح في اتجاه السفينة «أرابيلا»، التي أخذت تتحسر في الأفق. وبدت الشمس مرتفعة في السماء، أعلى بكثير مما كانت عليه عندما انزلق على بقعة الشحم تلك.

ازداد توتر ستانديش، وشعر بقلبه يخفق في صدره. على بُعد نصف ميل، كانت هناك مجموعة من خنازير البحر تلعب بلطف في الماء. كان هناك ما لا يقل عن اثني عشر منها، وكانت تنتقل بين الهواء والماء بقفزات رشيقة رائعة، وبدا المشهد برمته رائعاً. ولم يكن الرعب من خنازير البحر هو الذي أخاف ستانديش، حيث كان يعلم أنها غير مؤذية (أما خنازير البحر فلم تتجراً حتى على الاقتراب منه، فقد غلب الحذر من المجهول إحساسها بالفضول)، بل كانت المقارنة هي التي جعلته يرى بوضوح الآن كم هو غير صالح لسكنى البحر، غير صالح بنفس القدر تقريباً مثل سباعه يده التي ماتت عندما لمست أول قطرة ماء. يا لها من فجوة تبلغ قروناً طويلة، تلك التي تفصل بينه وبين خنازير البحر هذه! ومع ذلك تمنى لو أن لديه خياشيم وذبلاً مثلها. «الخاصية الأسموزية»، هكذا فكر ستانديش فجأة، مما جعله يسترخي دفعة واحدة، لأن هذه الكلمة لم تخطر بباله منذ كان طالباً في السنة الأولى في الكلية قبل تسعة عشر عاماً.

اختفت خنازير البحر بالسرعة نفسها التي ظهرت بها، تاركة ستانديش بشعور كئيب بكارثة وشيكة. أدار عينيه مرة أخرى نحو السفينة «أرابيلا»، فوجدها قد اختفت.

لم يستطع تصديق ذلك، حيث كانت موجودة هناك قبل لحظة واحدة فقط. بدت صغيرة جداً، هذا صحيح، لكنها كانت هناك، في الأفق، رابطه الوحيد المتبقي مع العالم الذي يعرفه. أفسحت الكأبة المجال للباس، بينما عيناه تقمصان الأفق بشكل محموم. وفي اللحظة التالية أفسح الباس المجال للدموع، دموع مالحة سالت على خديه، وسقطت في البحر المالح، إذ إنه رأى السفينة «أرابيلا» مرة أخرى، فمن دون أن يدرك، كان قد نظر إلى الشمس وبحث عن السفينة، ووجدها الآن إلى شمال الشمس قليلاً، لكنه لم ير إلا بقعة ضبابية ومدخنة، وفي بعض الأحيان عندما كانت أمواج البحر تبلغ ذروتها أمامه، لم يتمكن من رؤية شيء. ووطئ الماء على نحو محموم، محاولاً رفع جسده عالياً فوق مستوى البحر، وأجهد عينيه الممتلئتين بالدموع ليرى شيئاً لم يكن يتمنى رؤيته: تلك المدخنة وهي تختفي لا محالة خلف حافة عالمه.

صاح ستانديش:

- يا للقسوة! أوه، يا للقسوة!

وفي اللحظة نفسها أدرك أن محفظته التي تحمل نقوده المبللة وصورة عائلته وبطاقات الحانات القديمة قد انفصلت بطريقة ما عن سرواله ذي اللونين الأزرق والأصفر، وسقطت في قاع البحر.

ارتفعت الشمس عاليًا، ومكثت برهة من الوقت في أعلى السماء، تلتمع على نحو شيطاني فوق عالمها الموحش، وبعد ذلك، كأنها قررت إلقاء نظرة فاحصة، بدأت تهبط على مهل. استلقى الرجل في المحيط في ذهول، شاردًا في تأمل مصيره.

عند الساعة الثالثة تقريبًا - استنادًا إلى موقع الشمس - نظر ستانديش إلى يديه الباردتين الرطبتين. استنّزف لونهما تمامًا، وبدنا بيضاوين بلا حياة، بلون الموت الوشيك الذي لا لون له. صار عطشه فظيماً الآن، وعلقت في ذهنه تلك اللحظة المريعة التي شاهد فيها السفينة «أرابيلا» تتلاشى في الأفق على نحو رهيب. ومنذ ذلك الحين لم تُعد الحياة كما كانت، وامتزج الزمن برتابة وجوده. كان لون البحر أزرق، وتسربت الزرقعة إلى روحه. ومن بين كل طرق الموت، فكر في أن الغرق أسوأ طريقة، وتسأل لماذا اختير له هذا المصير. قلبت هذه الحادثة الشنيعة كل مفاهيمه السابقة عن العدالة. فلطالما كان يؤمن بقانون القصاص: كل خير تقعله ستلقى مقابله خيراً، وكذلك بالنسبة إلى الشر. لكن ستانديش لم يتسبب قط في إلحاق ضرر كبير بأي شخص. صحيح أنه خسر أموال بعض الأشخاص في أثناء انهيار سوق الأسهم، لكن ذلك لم يكن خطأ حقاً. كان في العموم نزيهاً وطيباً وعادلاً، فلماذا إذن عاملته الأقدار على نحو غاشم وقاس وظالم إلى هذا الحد؟ لماذا لم يحدث هذا لييم؟ لماذا لم يقع هذا المصير المرعب لييم أو حتى بينجلي؟ أدرك فجأة فظاعة الموت غرقاً في بحر أزرق هادئ: الوقت المُتاح لك للانفعال بالتفكير، ولعن مصيرك، والشعور بالضالة والعجز والرعب، بينما ترافق الحياة وهي تتسحب منك.

كان الغذاء الوحيد الذي يمكن أن يقاتل عليه الغريق هو الأمل في أن يُقَدَّ، وإلا فقد صوابه تماماً. ومع ذلك، على الرغم من اعتقاده بأنه لم يُعد هناك الكثير من الأمل، فإنه ظل محتفظاً بعقله. وقد جيره هذا إلى حد ما، حيث كان لديه كل الحق في تلك اللحظة في أن يصبح مجنوناً تماماً، ويضيع ما بقي من قواه في نوبة هستيرية مأساوية جامحة. لكنه لم يكن مجنوناً قط، بل كان عاقلاً تماماً، وتعيماً بشدة. قرر ستانديش أنه رجل شديد التهذيب، إلى درجة أنه لا يمكن أن يصاب بالجنون. لم يكن من طبيعته أن يفقد السيطرة على نفسه، وأدرك من دون صعوبة كبيرة أنه يراقب الأمل، تماماً كما اعتاد مراقبة ارتفاع الأسهم وانخفاضها على مؤشر البورصة في الوطن.

أصبحت الشمس حارقة على نحو رهيب الآن، وكان مجرد النظر إليها وهي ملتهبة وفانقة الضخامة، ثم التجول بعينيه المحترقتين بالدماء لينظر حوله إلى البحر الشاسع الموحش بدرجة لا تصدق، بكل تلك المساحات الشاسعة الممتدة من المياه، وكلها في دائرة عملاقة أكثر دقة من أي شيء يمكن أن يرسمه الإنسان على الإطلاق، كانا أمرين كافيين لجعل ستانديش يشعر بالإعياء والغثيان.

حاول ألا ينظر حوله. حاول أن يبقى عينيه مغمضتين وهو يطوف على ظهره في تلك الوضعية التي كان يقدرها كثيراً في شبابه، لكنها أصبحت الآن مؤلمة بشكل متزايد، وتخيل أنه في مكان آخر. تخيل أنه في مكتبه، أو بين ذراعي أوليفيا، أو في أورانج جالسا على كرسي هزاز يتحدث إلى أمه وأبيه، أو في هاواي مستلقياً على كرسي مريح يحدد إلى الأمواج المتلاطمة على شاطئ وايكياي ليلا. لكنه أدرك بمرارة بعد فترة أن هذه المحاولة لخداع نفسه كانت صبيانية جداً، إلى درجة أنها لم تحقق نجاحاً يُذكر، حيث تسلى إلى ذهنه طوال الوقت الاستياء العميق من قدره، والظلم المطلق للأمر برمته. فكر ستانديش في أن الرب يجب أن يخجل من نفسه لسماحه بحدوث مثل هذا الأمر الفظيع. فهناك رجال آخرون سقطوا من السفن، رجال أسوأ منه بكثير، رجال لم يعملوا عملاً صالحاً في حياتهم الضائعة، عوملوا بلطف أكثر: التقطتهم قوارب الصيد، أو حملهم التيار إلى الشاطئ، أو طفت في طريقهم قطع من الحطام والأخشاب المتعفة التي لا تُقدر بثمن، مما مكنهم من الراحة بعض الوقت، والتخلي عن الإجهاد الذي لا يُطاق الناتج عن الاستلقاء في نفس الوضع وإبقاء رئاتهم المرهقة التي تكاد تتفجر ممثلة عن آخرها بالهواء بشكل دائم. حصل الرجال الآخرون على كل هذه الفرص، لكن الرب لم يرسل إلى ستانديش ولو عود نقاب حتى.

صرخ ستانديش:

- لماذا؟! لماذا؟!

ثم أدرك أنها المرة الأولى التي يتكلم فيها منذ الظهيرة، عندما كانت الشمس فوقه مباشرة. ملأه صوته بياس لا حد له، وهو بلا صدى في هذا الفراغ المائي. بدا من الواضح أنه لم تكن هناك إجابة عن سؤاله الذي كان، كما أدرك، سؤالاً بلاغياً بحثاً ومبرراً. لم تكن هناك إجابة، ولا يمكن أن تكون هناك إجابة عن أي شيء من الآن فصاعداً، فقد صارت الحياة كلها فوضى، والأخبار يُنكل بهم ويُعذبون، بينما الأشرار يضحكون ويعيشون، وكل الأمثال، بما في ذلك المثل القائل «لا يمكنك أكل الكعكة والاحتفاظ بها في الوقت نفسه»، كذبة شنيعة.

صارت الشمس في أوج حرارتها الآن، وهو ما يعني، كما تخيل، أن الساعة كانت نحو الثالثة والنصف. لكنه شعر بأنه لا يستطيع التيقن من ذلك، فمن المؤكد أن الساعة كانت الثالثة والنصف بالنسبة إلى أي شخص آخر، لكن ستانديش لم يُعد يؤمن بأي شيء. ومع ذلك، وبافتراض أنها قد تكون الثالثة والنصف، فإن ذلك يعني أنه ظل في الماء أكثر من عشر ساعات. عشر ساعات! حدثت أشياء عظيمة في عشر ساعات. فقد وُلِد هنري بريستون ستانديش الابن، الذكر الذي سيحمل اسم ستانديش الطيب، في أقل من عشر ساعات، من أول ألم المخاض حتى نهايته. لقد رُبحت ثروات، وخُسر ثروات في وقت أقل، وها هو ذا ستانديش في الماء منذ عشر ساعات ولم يحدث شيء حاسم.

لكن عندما فكر ستانديش في الأمر من منظور آخر، شعر بالفخر بنفسه. إذ كان يعلم أن الكثير من الرجال كانوا سيموتون في غضون عشر ساعات. لم يكن معظم الرجال ليتمكنوا قلباً شجاعاً كقلبه في مثل هذا الموقف. فالعطش وحده، ذلك العطش القاسي الخبيث، كان سيقتلهم كالبعوض أمام اللهب. وفجأة انبعث أمل جديد في صدر ستانديش: سيُقَدَّ. كان يعلم أنه سيُقَدَّ. ذلك الطباخ، ذلك الطباخ الأحمق الغني، سيفقده بالتأكيد بحلول هذا الوقت. والنادل، وجيمي الصغير! كان الطباخ إنساناً ومن ثمّ لديه عقل، بصرف النظر عن مدى عدم أهميته أو مدى سوء أدائه. سيزرع الرب الفكرة في عقله الخامل إذا لم يستطع التفكير فيها بنفسه. سوف تستدير السفينة «أرابيلا» وستعثر عليه، ولا شك أنها قد استدارت بالفعل، وفي أي لحظة ستظهر في الأفق، متجهة مباشرة نحو النقطة الصغيرة في المحيط التي يمثلها هو. تبقت ثلاث ساعات أخرى قبل حلول الظلام، متسع من الوقت، وسيعيش خلالها، قسماً بكل ما هو مقدس!

صرخ ستانديش:

- يا إلهي! يا إلهي العزيز! أوه، يا إلهي اللطيف الرحيم!

كان صوته حاداً بشكل مأساوي، لأنه أدرك على الفور سبب تقاوله الجديد: تسللت فكرة الانتحار إلى ذهنه خلسة، كان هذا هو السبب. وكانت تلك هي طريقته في المقاومة: أن يتظاهر بالشجاعة في مواجهة هذا التهديد الجديد لسلامة عقله.

منذ اللحظة الأولى التي بدأ يفكر فيها في الأمر، كان يعلم أنه لن ينتحر، قال ستانديش ليسوا من النوع الذي يُقَدَّم على الانتحار.

ومع ذلك، ولسبب سادي لم يستطع تحليله بالكامل، قرر أن يسمح لنفسه بمتعة التفكير في الأمر متعمداً بينما هو يطوف هناك في الماء، ويشعر بجهد ملحوظ مع كل نفس جديد. بادئ ذي بدء، لن يعرف أحد بذلك أبداً. بدا الأمر مضحكاً على نحو كئيب، مزجة هائلة. لن تكون هناك فترة صغيرة في الصحيفة، ولا همس في النادي أو من وراء ظهر أوليفيا. ويقدر ما استطاع أن يري، كانت تلك هي النقطة الوحيدة المفيدة حقاً التي أحرزها منذ أن انزلق مثل ريفي أحمق فظ على بقعة الشحم اللعينة تلك. سيكون من المستحيل إثبات الحقائق، على افتراض أنه سيُعثر على جثته في يوم من الأيام. لأن كل ما كان عليه فعله هو إخراج الهواء من رئتيه، وهو ما لم يكن جيداً

بل قلة جهد، والسماح لوجهه بالهبوط بوصتين فقط عن موضعه الحالي. لكن الماء كان يتماوج حول فتحتي أنفه الآن، ويكفي بوصة واحدة. فلنتر فر أنفاسك وتُص في الماء، ثم فجأة، وبأخر ذرة من الإرادة والطاقة المتبقية في جسك، استنشقت بعمق، ليس من الهواء، بل من المياه الزرقاء. عندئذٍ، كما افترض ستانديش، سيحدث صراع يائس، ومن المحتمل أن تطرد ردود أفعاله الماء من رنتيه، وسيندفع إلى السطح ضارباً الماء بذراعيه، وهو يسعل ويبصق ويلهث طلباً للهواء. لكن إذا استنشقت الماء بتصميم كافٍ - سيعتمد كل شيء على ذلك النفس الواحد القوي تحت الماء - فسيكون الصراع قصيراً. سينتهي كل ألمه وخوفه، وسيهدأ ظمأه، ولن يضطر مرة أخرى إلى اتخاذ تلك الوضعية البائسة: ظهره مقوس، وأصابع قدميه مفرودة، وذراعه ممدودتان. قرر ستانديش تجربة الأمر - إلى حد استنشاق الماء فقط - ليرى كيف سيكون إحساسه.

أخرج الهواء من رنتيه، وترك جسده يغوص بسرور تحت الماء، وعندما أغمض عينيه عاد بذاكرته إلى أيام طفولته عندما كان يمسك أنفه، ويغوص برأسه في حوض الاستحمام. بدأ الأمر ممتعاً تحت الماء وهو يغرق بتكاسل فحسب. كان يعلم أن التجربة ستنتهي بعد ثوانٍ قليلة، وسيضطر إلى الصعود إلى السطح لاستنشاق الهواء مرة أخرى، بل وشعر بالأسف لذلك. وفجأة شعر برغبة عارمة في المضي قدماً في التجربة بعض الشيء، ليستنشق القليل من الماء فحسب كي يرى ما سيحدث. فقد ففز رجال من فوق الأسطح لدواعٍ أقل من هذه، وأي تغيير سيكون للأفضل في وضعه الحالي.

كاد ستانديش يفعل ذلك، لكن بعدها حدث شيء رائع. فقد انتابه شعور باليقين المطلق بأنه سيُنقذ، وتخيل أنه سمع اهتزازات السفينة «أرابيلا» في الماء. اندفع تلقائياً إلى السطح، واستنشقت الهواء النقي المالح على نحو محموم. مسح الأفق بحثاً عن السفينة «أرابيلا»، لكنه لم يتمكن من رؤيتها في أي مكان. استأنف ستانديش مرهاً وضعية الطفو، وشعر برهبة غريبة.

بعد ذلك، ذاب الزمن، وصار مجرد فكرة ضبابية، ووصل الألم في ظهره إلى مرحلة معينة من الوجع الرتيب المتواصل ولم يتحسن أو يُسَو. وتحولت مهمة البقاء طاقياً، التي تعتمد على السرعة التي يستطيع بها إطلاق الهواء من رنتيه وسحب الهواء النقي، إلى روتين ممل ومزعج، كما لو كان يعمل لساعات أمام آلة ما تجبره على القيام بنفس المهمة البسيطة التي لا تتغير، ولا تنتهي آلاف المرات من دون راحة.

- أوليفيا... أيها الطفلان، هنري الصغير، وهيلين. كان الأمر فظيماً جداً، لكنني اعتديته بعد فترة. لا أعتقد أنني أستطيع وصف الشعور بالوحدة في وسط المحيط، لكنني سأحاول. طولي خمس أقدام وسبع بوصات فقط، ووزني مائة وخمسة وأربعون رطلاً. لكن الرب وحده يعلم مدى عمق المحيط، أو الوزن الإجمالي للمياه. فكروا في الأمر فحسب يا أوليفيا، وهنري الصغير، وهيلين! يمتد الماء أمامك وخلفك بقدر ما تستطيع العينان الرؤية، وفوقك بالأعلى السماء والشمس. هذا هو عالمك كله، ولا شيء يكسر رتابة المشهد. وهناك بقعة ما في وسط الصورة بالضبط: هذا أنا، زوجك، ووالدك. في بعض الأحيان ظننت أنني لن أملك القوة اللازمة للبقاء طاقياً حتى يأتوا ويلتقوني من الماء. ناوليني السجانز من فضلك يا أوليفيا، وعود نقاب، شكراً لك. وبينما أنا مستلق هناك على ظهري، (لا، من الأفضل أن أخبرهم بأنني كنت أسبح طوال الوقت)، بينما أنا أسبح في ذلك البحر البائس، التقيت وجهاً لوجه مع سرب من خنازير البحر. كنا قريبين جداً، إلى درجة أنه كان في إمكانها تناول الطعام من يدي. لم أكن خائفاً. لا معنى للخوف. هل رأيت من قبل مجموعة من خنازير البحر تلعب بجوار مقدمة السفينة؟ إنه أجمل منظر في العالم، لكنني لم أتوقع قط أن أقابلها وجهاً لوجه في البحر. نعم يا أوليفيا، أعتقد أنني سأتناول كأساً أخرى من السكرتس والصوردا.

كان التفكير في السكرتس والصوردا يفوق قدرته على الاحتمال. صرخ ستانديش بصوت أجش بفعل العطش:

- رجل في البحر!

ثم تأره كطفل مضطرب. كم كان الأمر سيصبح أكثر إنسانية لو أن رفاص السفينة «أرابيلا» شوّهه ومات على الفور. فالألم الحاد السريع أفضل بكثير من الألم البطيء الممل، والموت المفاجئ أرحم من عذاب الأمل العقيم الذي لا نهاية له.

أدرك فجأة أن سرواله القصير ذا اللونين الأزرق والأصفر، وقميصه الرياضي الضيق، كانا ثقيلين جداً. وفي فورة غضب منقطعة بدأ تمزيقهما عن جسده. انخلع السرول القصير بسهولة، لكنه اضطر إلى الشد والجدب بقوة لخلع القميص الداخلي. تخبط بجنون في الماء وهو يجذب حمالتي الكفف بعنف. وأخيراً انخلع القميص بطريقة ما، وتحرر وصار عارياً. كان التعري إحساساً جديداً شعر ستانديش بالامتنان له لحظات، وشعر بالراحة في الماء فترة من الوقت. لكنه أدرك بعد ذلك بفزع شديد أن ذلك كان بسبب أن السباحة عارياً دائماً ما كانت متعة في حياته، واسترخاءً وشيناً يتطلع إليه في يوم حار. في النادي الرياضي في نيويورك، في حوض السباحة المخصص للذكور فقط الذي كانت تفوح منه رائحة الكلور، سبح عارياً في العديد من المناسبات الممتعة. لكن العري صار له معنى مختلف تماماً الآن، وجعله التفكير في ذلك يرتجف، ويشعر بالبرد الشديد والإرهاق. لقد تجرد من ملبسه بالكامل ليُعد نفسه للموت، كان الأمر بهذه البساطة. كان متعهدو دفن الموتى يجردون ضحاياهم من ملابسهم قبل أن يعيدوهم للدفن. لكن كان على ستانديش أن يخلع ملابسه وهو لا يزال على قيد الحياة، ولن يُدفن بعد وفاته.

قال ستانديش بصوت عالٍ:

- فكر في أوليفيا!

- أوليفيا، وأنا مستلق في الماء، ساعة بعد ساعة، كنت أفكر أحياناً في أفضع الأشياء. لكنني كنت أغمض عيني دائماً، وأرى صورتك أنت والطفلين، عندما كانت الأمور تبدو أكثر سواداً. وفي الحقيقة لم أفقد الأمل قط.

تدفقت دموع غزيرة من عيني ستانديش نصف العمياوين اللتين ألمَ بهما شعور حارق شديد. يا لها من حكاية رائعة يمكنه روايتها، لو تمكنوا فقط من إنقاذه! كان العالم في حاجة إلى هذه القصة: حكاية الشجاعة في مواجهة أكثر أنواع الكوارث بدائية، حكاية الأمل الذي يغذي قلب شجاع.

تردد صوته صارخاً وسط وحشة الماء:

- اسمعوني! فليستمع إليّ أحذكم، رجاء!

لكن بالطبع لم يكن هناك أحد ليستمع، واعتبر ستانديش عدم وجود جمهور هو أحقر خدعة على الإطلاق.

في ذلك المساء، قُدم العشاء على متن السفينة «أرابيلا» في تمام الساعة الخامسة، ولاقى نجاحًا كبيرًا. في البداية، كان هناك حساء البيلطنوس، تليه الرنجة المشوية، وأضلاع لحم الضأن، والديك الرومي المشوي المحشو بالكستناء، والسلطة الروسية وسلطة البنجر، والبطاطس المشوية، والقرنبيط، وفطيرة التفاح، والكستناء بالكريمة، والجبن، والفواكه، والقهوة والشاي. لم يكن الطعام استثنائيًا على الإطلاق، إذ كان الطباخ رجالًا متوسط المهية، لكنه كان صحيًا ولذيذاً وبكميات وافرة. ولم يكن مطلوب ما هو أكثر من ذلك على السفينة «أرابيلا». ففي مثل هذا البحر الهادئ، مع ذلك العرض السماوي الرائع الذي يذهل الحواس بجماله، لم تكن هناك حاجة إلى إثارة الشهية. ولخيبة أمل النادل، لم يطلب أحد كوكيتل واحدًا أو ويسكي أو صودا قبل العشاء، ولا حتى السيد ستانديش، وقال للطباخ في أثناء إعداده للموائد إنه لم يبحر مع مثل هؤلاء الركاب المملين من قبل.

كان أطفال السيدة بنسون جائعين جدًا، إلى درجة أنهم تناولوا عشاءهم في هدوء نسبي، وسجلوا رقمًا قياسيًّا في عدم التملل في مقاعدهم. ولم يسبق للسيد والسيدة براون أن تناقشا في كيف أن التأمل المستمر في أمجاد الرب غالبًا ما يؤثر الشهية، لكن كان في إمكانهما أن يفعلا، فقد ثبتت صحة ذلك في حالتها. وكان نات آدمز بطبيعته يتمتع بشهية مفتوحة، وقد زاد من حدة هذه الشهية فكرة أن الرحلة كلها مدفوعة الثمن مقدمًا، وأن كل قسمة يأكلها كانت من جيب الشركة، وعلى أي حال، فطالما كان يجيب الديك الرومي المشوي المحشو بالكستناء. كان الضباط والمهندسون جانعين كالعادة، ولم يتحدثوا كثيرًا في أثناء العشاء. بعد ذلك نهضوا الواحد تلو الواحد من الموائد الحافلة (ما عدا السيد والسيدة براون اللذين نهضا معًا)، وخرجوا من غرفة الطعام إلى سطح السفينة، واختار كل منهم مكانه المفضل لهضم طعامه ومشاهدة الشمس وهي تغرب.

وفي هذه الأثناء كان القبطان بيل يفقش السفينة بغضب، والسيد بريسيك في أعقابها.

في البداية، انزعج القبطان الطيب، ثم ازداد غضبه فيما بعد، وعندما اكتشف أن الأخبار التي جلبها إليه السيد بريسيك كانت صحيحة، وأن ستانديش مفقود بالفعل، لم يُعد لغضبه حدود. وبعد عودته إلى خصوصية مقصورته، لعن السيد بريسيك وشتمه، لأنه لم يبلغه بشكوكه في وقت أسرع، وهدده بشتى أنواع العقوبات المروعة، وقال إنه سيسحب منه رخصته ويقبده بالأغلال، ويرسله إلى السجن عندما تصل السفينة «أرابيلا» إلى بنما. وتقبل السيد بريسيك غضب القبطان بأكبر قدر من التحمل، مدركًا أنه من التقاليد البحرية أن يتصرف القبطان على هذا النحو في مثل هذه الحالة. لكن القبطان بيل لم ينفذ أيًا من تهديداته، ولا يزال السيد بريسيك يعمل تحت قيادته، وإن كان على متن سفينة مختلفة في محيط مختلف.

وأخيرًا، قرر القبطان بيل في غضب عارم استدعاء جميع العاملين إلى غرفة الطعام لاستجوابهم، فترك السيد بريسيك صحبة القبطان بارتياح، وهو يُطلق السباب بهدوء شديد. توجّه إلى كل راكب وضابط وفرد من أفراد الطاقم على حدة، وقال بهدوء:

- رجاءً اذهبوا إلى غرفة الطعام، فلدى القبطان بيل إعلان يريد الإدلاء به.

وعلى الرغم من أنه حاول إنجاز مهمته بأقل قدر ممكن من الدراما، فإنه خلق قدرًا كبيرًا من الإثارة بين ركاب السفينة. كان أي حادث غير متوقع على متن السفينة أمرًا مرحبًا به، وفي غضون خمس عشرة دقيقة اجتمعوا جميعًا في غرفة الطعام، يثرثرون في سعادة. لم يكن لدى أحد أدنى فكرة عن سبب تجمعهم هناك، ولا حتى الضباط والمهندسين، مما جعل الأمر أكثر غموضًا. للحظات قليلة، ترددت أغرب الشائعات، مثل أن هناك وباء مميتًا على متن السفينة «أرابيلا»، أو أن أنباء وردت للتو عن كارثة ما في الولايات المتحدة، ربما زلزال مدمر. وفي خضم كل هذا الاضطراب، لم يلاحظ أحد غياب ستانديش. تعالي طنين أصواتهم تدريجيًا حتى صار ضجيجًا، لكنه توقف على الفور تقريبًا عندما ظهر القبطان بيل بشكل درامي نحو الساعة السادسة.

بدا وجه القبطان صارمًا، وكانت شفاته مطبقتين، بينما توجّه إلى طاولة في زاوية حيث يمكنه مخاطبتهم جميعًا. نظر حوله بحزم لحظة طويلة قبل أن يتحدث.

قال القبطان بيل:

- سيداتي وسادتي، السيد ستانديش مفقود.

كان التأثير الذي أحدثته كلماته غريبًا بالفعل، حيث صدر نوع من الشبهق الجماعي، ثم ساد صمت جماعي، وأخيرًا تعالت الأصوات في كل مكان. وقد أظهرت السرعة التي استوعبوا بها إعلان القبطان أن جميعهم تقريبًا كانوا يعرفون أن ستانديش مفقود منذ ساعات عديدة، لكنهم ببساطة امتنعوا عن الحديث عن الأمر. وبالنسبة إلى معظمهم، فقد أكد ذلك قلق مبيهم كامن في أعماقهم، والآن وقد تكلم أحدهم، أنزلهم جميعًا أن أحدًا منهم لم يثر هذا الأمر من قبل.

رفع القبطان بيل يده:

- من فضلكم، من فضلكم.

ساد الصمت، فتابع قائلاً:

- وفقًا لما نعرفه حتى الآن، شوهد الرجل آخر مرة في الساعة الخامسة تقريبًا من صباح اليوم. هل رأى أحدهم - رجاءً فكروا جيدًا - السيد ستانديش منذ تلك الساعة؟

ساد صمت عميق، وتحنج القبطان بيل:

- سيد براون، أعتقد أنك أخبرت السيدة بنسون في الساعة العاشرة تقريبًا بأنك رأيت السيد ستانديش في المكتبة قرب الساعة التاسعة والنصف.

كان صوت السيد براون ناعمًا ووقورًا:

- نعم، هذا صحيح أيها القبطان، لكنني كنت مخطئًا. لقد أوضحت للسيد بريسيك منذ عدة ساعات أن السيد آدمز هو الذي رأيت في المكتبة في الواقع. لا أفهم كيف اختلط عليّ الأمر بين الرجلين. أخشى أن ذهني كان مشغولًا بأمر آخرى.

قال القبطان بيل:

- لا بأس، كلنا نخطئ، لكنني أريد التأكد فحسب. يا سيد آدمز، لقد كنت في المكتبة في الساعة التاسعة والنصف تقريبًا، أليس كذلك؟

بدا نات آدمز في حالة من الذهول:

- بلى يا سيدي، لقد دخلت لبضع دقائق. الساعة الخامسة هذا الصباح!

هذه ثلاث عشرة ساعة...

قال القبطان بيل بكآبة:

- نعم، ثلاث عشرة ساعة. لكن من فضلكم، جميعكم، فكروا ملياً. ألا يتذكر أحدكم رؤية السيد ستانديش بعد الساعة الخامسة صباحاً؟

لم يتذكر أحد، وشعر الجميع تقريباً بالدوار والارتباك. وأدرك القبطان بيل عدم جدوى استجوابهم أكثر من ذلك، إذ بدا من الواضح أن الطباخ هو الوحيد الذي رأى ستانديش في الساعة الخامسة، ولم يره أحد بعد ذلك.

قال القبطان بيل أخيراً:

- شكراً لكم. علينا أن نعود أدرجانا للبحث عن السيد ستانديش. سنصل السفينة «أرابيلا» إلى بنما متأخرة بيوم واحد على الأقل.

كان القبطان في حالة من الغضب الشديد، ووجد صعوبة في السيطرة عليها أمام الركاب. خرج من غرفة الطعام، وصعد إلى برج القيادة، حيث أمر السفينة «أرابيلا» بالاستدارة والعودة إلى هونولولو. ثم أمر الضابط الثالث بإعداد الأضواء الكاشفة على برج القيادة لاستخدامها في أثناء الليل، وأمر جميع العاملين بالوقوف على أهبة الاستعداد، على الرغم من علمه بأنه لا يوجد شيء يمكن فعله حقاً. لكنه أدرك أنه سيتعين عليه الاستمرار في عملية البحث لمدة اثنتي عشرة ساعة على الأقل، حتى الصباح على أي حال، وهذا يعني ضياع يوم كامل. سيكلف الأمر الشركة ما لا يقل عن خمسمائة دولار، في الوقت الذي يحاولون فيه جاهدين الاقتصاد في النفقات. وقيل أن يخرج من برج القيادة عائداً إلى مقصورته، أمر بتحريك الأضواء الكاشفة ذهاباً وإياباً لاختبارها، حتى لو كان لا يزال هناك ضوء، وأدرك أنها ستجدي نفعاً بقدر ما يجدي إشعال عود ثقاب ورقي في وجه الشمس.

في غرفة الطعام، سادت فترة من المهمة الخافتة التي تخللتها طققة الأسننة والتنهات وأصوات صغير خفيفة. ثم انصرف الضباط والمهندسون وأفراد الطاقم إلى مقصوراتهم الخاصة ليحدثوا عن الأخبار، ووجد معظم الركاب أنفسهم فجأة وقد تملكتهم الرغبة في الاختلاء بأنفسهم. وحتى السيد والسيدة براون توقفا عن البحث عن معانٍ جديدة في عدد قديم من صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور»، وذهب كلاهما في طريقه المنفصل. شعر الطباخ بالخجل والبؤس، وسار إلى الباب المشؤوم ووقف هناك طويلاً. وبعد برهة، ارتجف وهو يرى بعض الرمزية الفظيعة في حقيقة أنه ألقى البيض المسلوقة في البحر بعد ستانديش. كان رد فعل جيمي بنسون الصغير ضئيلاً لا يُذكر، بالنظر إلى عمق صداقته مع ستانديش. نظر إلى البحر وحاول أن يفكر في وجود ستانديش في الماء، لكن الأمر كان يفوق قدراته، ولم يصب بالأرق أو يفقد الشهية بسبب هذه المسألة. وكان أول ما خطر ببال النادل هو أنه لن يحصل على بقشيشه، وثاني شيء هو الندم على عدم سرعة ربطه عنق ستانديش المنقطة.

سارت السيدة بنسون كأنها في حلم، وتوجهت إلى بقعة خلف قارب نجاة حيث يمكنها أن تكون وحدها. شرعت الشمس في الغروب، وظهرت النجوم باهتة. دائماً ما كانت الطريقة التي يحدث بها ذلك تذكرها بإضاءة الأنوار تدريجياً في السينما. سيكون الذهاب إلى السينما هو أول، أو ربما ثاني شيء ستفعله عند وصولها إلى الشاطئ. نظرت إلى المحيط خلسة. ها هي ذي في أمان هنا، على الألواح الخشبية العريضة، بينما السيد ستانديش هناك في الماء. كان من الصعب تخيل ذلك، ومن الأصعب تصديقه، ومع ذلك كانت تعرف أنه صحيح. كان رجالاً لطيفاً وكريماً أيضاً - أخرجت علبه من حلوى النعناع من جيبتها، ووضعت واحدة في فمها بتأن - ودائماً ما كان ما يوجه كلاً طيباً إلى الأطفال، كما كان مهذباً على الدوام، ورجلاً نبيلاً في حضور سيدة. سرت فشعيرة عبر عمودها الفقري، فشعيرة بسيطة للغاية، لكن كافية لجعلها تتراجع خطوة إلى الوراء عن حافة سطح السفينة. كان هناك غموض ما يحيط بذلك الرجل، وقد شعرت بذلك منذ البداية: طابع من الكآبة، شيء حزين وغير ملموس يتخلل كيانه. ومن خلال الكلمات القليلة التي قالها لها في المرات المحدودة التي لم يبد فيها التحفظ في الحديث، خمنت أنه كان تعيش، على الرغم من أنها لم تستطع معرفة السبب. لكن مثل هذه الطريقة للانتحار، والقفز في المحيط من دون إخبار أحد، كانت تقوق استيعابها. كانت هناك بعض الأشياء التي يمكن للإنسان أن يتصورها، وبعض الأشياء التي يعجز عن تصورها. وجدت السيدة بنسون أنه من المستحيل التركيز على رجل ينجر في المحيط، وقضمت حلوى النعناع ومضغتها، حتى أحرقت لسانها.

انزعج نات اندرز بشدة من هذا الأمر المحزن برمته، إلى درجة أنه تناول كأساً أخرى من عصير الليمون، الذي كان متوفراً دائماً في غرفة الطعام. لم يترك وراءه رسالة توضيحية حتى، بدأ الأمر لا يُصدق. شرب عصير الليمون على مهل، وأدار السائل الحامض في فمه ثم ابتلعه على مضض، وفكر كيف كانت الأمور ستختلف لو أنه طرق باب ستانديش بعد الإفطار. لربما طرقة مرة ثانية وثالثة، ولربما اكتشف غياب ستانديش في الصباح، عندما كانت الفرصة لا تزال متاحة للاستدارة بالسفينة والعتور عليه. نزل إلى مكانه المفضل على سطح السفينة، ووقف يتأمل البحر والنجوم التي تتجسد في السماء. تحدى الأمر خياله، فلا يمكن أن تفكر في هذا الاتساع في لحظة، ثم تفكر في اللحظة التالية في حزمة بشرية ضئيلة ضائعة في خضمه. كان أحدهما أعظم بكثير من الآخر، ولا يستطيع العقل البشري ببساطة التعامل مع الأمرين معاً. ملأ نات غليونه القديم الضخم وفتته بضع مرات بثبات، وبدا وجهه قناعاً مغمضاً. كان هناك دليل على انتحار ستانديش، في مكان ما في مؤخرة عقله كان لديه دليل. شعر بأن عليه أن يجده. صبق في البحر، وخطرت له الفكرة دفعة واحدة؛ شيء قاله ستانديش في سياق محادثة تافهة قبل أسبوع تقريباً.

قال ستانديش ببطء وهو يتأمل الشمس الغاربة:

- من المؤسف أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش هكذا إلى الأبد، وهو يشعر بالسعادة فحسب، من دون الاضطرار إلى التفكير في سبب.

كان ذلك هو الدليل. ذلك نات التبغ في غليونه، وأسرع عائداً إلى غرفة الطعام. كان عليه أن يخبر أحداً بذلك، فربما يكون لديهم بدورهم تصريحات من ستانديش، التي إذا ما جُمعت معاً فمن شأنها أن تشكل الصورة كاملة.

كان بيورجستروم، البحار الفنلندي، في مكان إقامة البحارة عند مقدمة السفينة، يشعر بالرضا والبؤس في آن واحد، أكثر حتى من صديقه العزيز جاسكين، الذي وقف على أهبة الاستعداد عند برج القيادة، لتشغيل أحد الأضواء الكاشفة. كان بيورجستروم يتمتع بعينين ثابتتين، وكان بصره أكثر حدة من أي بحار على قيد الحياة، على الرغم من أنه لم يكن يتباهى بذلك. ولو كان هناك أي أمل في العثور على ستانديش، لوقف بيورجستروم على رأس مقدمة السفينة وسط إعصار استوائي، وتلكما العينان تخترقان المحيط. كان سيسمح لهم بربطه إلى الصاري، لو كان هناك أي أمل. لكن بيورجستروم اعتقد أنه لا يوجد أي أمل، حيث أدرك بخبرته، بوصفه بحاراً، أن ستانديش فقد منذ ساعات طويلة جداً، بحيث لا يمكن العثور عليه إلا بمعجزة. ولم يكن الوقت هو الشيء الوحيد ضد الرجل، إذ كان التيار يدفعه باستمرار بعيداً عن أثر السفينة «أرابيلا». تهدد بيورجستروم ونزل من فراشه، وصعد إلى السطح الخلفي للسفينة. وقف هناك مرتدياً سروالاً قفراً، وراقب زبد السفينة «أرابيلا» وهو يذوب في الليل. كان ستانديش رجلاً صالحاً، وقد لاحظ بيورجستروم ذلك على الفور. بدأ بيورجستروم غريباً على هذا النحو: كان يقيم الركاب في اليوم الأول من الرحلة، ولا يغير رأيه فيهم أبداً، على الرغم من أن الأمر لم تكن له أهمية حقاً، لأن مساراتهم لا تتقاطع أبداً. وقد قيم ستانديش على الفور بوصفه رجلاً صالحاً، أي أنه يُحسن إلى أمه، ويرسل المال إلى زوجته من أجل أولاده. قضى بيورجستروم عدة دقائق متكاسلاً، يتساءل كيف خسر ستانديش المال الذي أجبره على الانتحار، ثم قرر بشكل غامض أن الأمر ربما حدث في سوق الأوراق المالية. هكذا يحدث الأمر دائماً: تكون ثرياً، وفجأة تخسر كل أموالك في سوق الأسهم، ربما بسبب ذلك المحتمل المذهل إيفار كروجر، ثم يلاحقك الناس لإلقاء القبض عليك، تشعر بالخزي، وتهرب من عائلتك، لكنك تعلم في النهاية أن الشرطة على وشك اللحاق بك، لذا تنتقل بنفسك. أدتهش مدى اتساق نمط حياة الرجال من أمثال ستانديش. أما عن نفسه، فلن يموت بهذه الطريقة أبداً. بدا من المستحيل التعبير عن ذلك بالكلمات، لكنه كان يكن احتراماً للبحر، وخلع قبعته أمامه. كان البحر كأنه غريباً يحمل كل أنواع الأفكار الغريبة، أسوأ منه هو حتى عندما يثمل. يبحر البحارة في البحر، ويقول البحر حسناً، لا بأس، لكن لا

تضغطوا عليّ كثيراً، ترفقوا، ولتذهبوا أنتم في طريقكم، ودعوني أذهب في طريقي. وقد أبحر بيورجستروم ذات مرة على متن سفينة ركاب أمريكية تبحر بين نيويورك وهافانا، لكنه استقال بعد رحلة واحدة، على الرغم من أنه كان في حاجة ماسة إلى الوظيفة. هؤلاء الناس التافهون بمشروباتهم ورقصهم تحت ضوء القمر، لم يكن لديهم أي احترام للبحر على الإطلاق. كانوا يظنون أن الرب خلق البحر للترفيه عنهم، في حين أن كل بحار عاقل يعلم أن الرب خلقه لنقل البضائع بهوء من قارة إلى قارة. ونتيجة لذلك كان البحر يغضب، ويذكرهم بغطرستهم بين الفينة والفينة، فيحرقهم في نار على متن السفينة، أو يجمدهم في الممر الشمالي الغربي (٤)، أو يحطم أدمغتهم في مواجهة أمواج يبلغ ارتفاعها ميلاً. وكان من المضحك جداً كيف أن البحر يعرفهم قدرهم بكل بسهولة، أسهل من وطء الفيل على نملة. فكر بيورجستروم على نحو مبهم في أن هذا هو السبب لكون البحارة لا يستحمون أكثر من اللازم. كان هؤلاء الجهلاء الذين لا يفهمون البحر يتصورون أن السبب في ذلك هو أن البحارة قنزون بطبيعتهم، لكن هذا فقط لأنهم لم يرغبوا في الإكثار من ملامستهم للبحر. حيث كان البحر ينال منهم بما فيه الكفاية، والرداذ يتطاير دائماً في وجوههم، والأمواج تضرب سطح السفينة في الطقس العاصف. أحاط بهم البحر من كل الجوانب إلا الأعلى، لكن كان من الصعب التكهن بالرب، كما البحر، فلا أحد يعرف ما الذي سيفعله أيضاً. ولو أراد البحر ذلك، لكان في إمكانه أن يعطيك حماماً في الحال - حماماً طويلاً - فما معنى الإلاح في المسألة إذن؟ فكر بيورجستروم: «يا للرجل المسكين!». لكن في النهاية، إذا أراد ستانديش الانتحار فهذا شأنه. أما هو فسيعود إلى غرفته في مقدمة السفينة، ويحاول أن يكتب رسالة إلى أمه في فنلندا.

دخل نات أدمز غرفة الطعام، وكانت أسنانه الصناعية تؤلمه، كما هي الحال دائماً عندما ينفعل، فوجد السيدة بنسون، والسيد ترافيس، كبير المهندسين، والسيد والسيدة براون، جالسين هناك في جو من الحزن الوقور. وقد فعل السيد ترافيس كل ما في وسعه، وهو الالتفاف بالسفينة «أرابيلا» وتغيير مسارها. كان اهتمامه الشديد بالألات والحاجة الأبدية إلى الحفاظ على كل شيء مزيتاً قد غلف روحه بالسخرية فيما يتعلق بالشؤون الإنسانية، ووجد أن غياب ستانديش لم يؤثر فيه بأي شكل من الأشكال. لكنه شعر بطريقة ما بأنه من اللائق بمنصبه أن يظهر بعض الاهتمام، لذا تخلى على مضض عن لعبة البريدج لبقية المساء، وقرر أن يجلس في حزن مع الركاب حتى يقررروا الذهاب إلى الفراش.

كان السيد والسيدة براون في معضلة حول أكثر من مسألة، حيث إن الخطأ بشأن الرجل الذي كان في المكتبة - فقد توقف السيد والسيدة براون عن التفكير في الأمر بوصفه كذبة صريحة - خلف طعماً مريزاً في فميهما، على الرغم من أنهما لم يعترفوا بذلك لبعضهما. كانت السيدة براون تعرف أن زوجها قد كذب، إذ كانا قريبين جداً من بعضهما، إلى درجة أنه لم يستطع خداعها. لكن بالمنطق نفسه، كانا قريبين من بعضهما، إلى درجة أن الكذبة صارت كذبتها هي أيضاً بقدر ما كانت كذبتها، وعلى أي حال فقد قبلت لصالحها كما قبلت لصالح السيد براون. كان التأثير العام للخطأ هو إعطاء السيد براون أهمية أكبر في قضية السيد ستانديش من أي شخص على متن السفينة «أرابيلا»، باستثناء الطباخ. وقد اضطر السيد براون إلى أن يقول عدة مرات لأشخاص مختلفين:

- كان في إمكاني أن أقسم إنه السيد ستانديش، لكن لاحقاً، بعد التفكير العميق، أدركت مدى خطئي. إن العين لخادعة حقاً عندما يكون العقل منشغلاً بأمر آخرى.

لم يشك أحد في أن السيد براون كذب، ولم يكن هناك سوى الشعور بالاستياء من اضطرار المرء إلى التحكم في لسانه في مسألة كان ينبغي أن تكون موضوعاً للحديث بلا قيود، وبالطبع، كان هناك وخز في الضمير، لأنه لم يستطع منع نفسه من التفكير في أنه لو لم يتلفظ بالكذبة لربما ذهبت السيدة بنسون للبحث عن ستانديش واكتشفت غيباه. ومع ذلك، كان هذا الاحتمال بعيداً تماماً، ولم يصل السيد براون إلى حد تأنيب نفسه، ووصف نفسه بـ«القاتل بدم بارد». كما كانت هناك مسألة أخرى تمثل معضلة أكبر: لم يكن لديهم أي طريقة لمعرفة ما إذا كان ستانديش حياً أم ميتاً، والشيء الوحيد الذي كانوا متأكدين منه هو أنه حاول الانتحار. وإذا كان لا يزال على قيد الحياة، على الرغم من محاولته الانتحار، ففي إمكانهم الصلاة من أجل إنقاذه وخلصه. لكن إذا مات، وهو ما بدا مرجحاً، فقد انتحر، وهو أمر لا يمكن قبوله أخلاقياً تحت أي ظرف من الظروف. فلا بأس بالخاطي الذي يمكن خلاصه، أما الخاطي الذي لا يمكن خلاصه بسبب موته نتيجة لخطيئته، فقد كان في واحد من أدنى المستويات الدينية التي يمكن أن يتخيلها السيد براون. أدرك السيد براون أن الآخرين يتوقعون منه أن يتلو صلاة، والحقيقة أنه عرف من خبرته الطويلة بين الصينيين الوثنيين أنهم يتهبون ذلك، لكن المشكلة المربكة حيرته، إلى درجة أن لسانه انعقد.

كانت هذه هي المجموعة التي انضم إليها نات أدمز، وجلس مستنداً بظهره إلى كرسي مريح. ولم يرحبوا به إلا بإيماءات رزينة، وخفضوا أعينهم باحترام، واستمر الصمت الذي ساد قبل وصوله. لكن الصمت لم يردع نات، حيث انشغل باله باكتشافه بدرجة كبيرة.

قال نات:

- أه، يا له من رجل مسكين! لم أعتقد قط أننا سنفقه على هذا النحو.

تملمت السيدة بنسون في كرسيها، حيث ناقشوا هذه المسألة بالفعل عدة مرات:

- أشعر بالاعتلال لمجرد التفكير في الأمر يا سيد أدمز.

حدق نات بجديّة وإصرار إلى السيد والسيدة براون والسيد ترافيس.

قال نات:

- أتساءل لماذا أقدم على ذلك؟!

قال السيد براون بحدّة:

- على ما يبدو أنه كان يحمل حزناً سرياً، أقوى من أن تتحمّله روحه.

لم يعجبه هذا التحول في المحادثة، واستطاع الآخرون رؤية ذلك في الصرامة المفاجئة التي ظهرت على وجه زوجته.

لكن نات أصر، ووضع ساقاً فوق الأخرى، وتحرك إلى الأمام في كرسيه المريح، وقال بشروء:

- إنه أمر غريب يا سيدة بنسون، لكنني أدركت للتو أن السيد ستانديش كان يفكر في ذلك طوال الوقت، بينما كنا نظن أنه سعيد. فقد قال لي منذ أسبوع فقط: «أدمز، من المؤسف أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش هكذا إلى الأبد، وهو يشعر بالسعادة بحسب، من دون الاضطرار إلى التفكير في سبب».

اغرورقت عينا السيدة بنسون بالدموع، بينما تابع نات:

- كان يتسم بشيء من الحزن، حزن عذب، لكنني لم أعتقد قط أن الأمر جاد.

شعر السيد ترافيس بأنه يجب أن ينطق بشيء ما، فقال:

- في بعض الأحيان يكون الرجال غامضين.

وضع نات يده على ذقنه:

- أتساءل ما الذي كان يعنيه بذلك. أتساءل... هل كان متزوجًا؟

قالت السيدة بنسون:

- كان متزوجًا، بالطبع كان كذلك. ألم يخبرك قط عن طفليه في نيويورك؟

رفع نات يده:

- لا أقصد ذلك. لقد ذكر لي الطفلين. أعني... هل كان لا يزال متزوجًا إلى الآن؟ بدا لي رجلًا ربما يعاني بعض المشكلات مع زوجته.

التمعت عينا السيدة بنسون فجأة:

- نعم يا سيد آدمز، نعم! بالطبع، كم كنت عمياء عن رؤية ذلك! منذ أيام قليلة، يوم الأحد الماضي بعد العشاء، كنت أحكي له عني وعن السيد بنسون، وكيف أننا على وفاق، كما تعلم، وهل تدري ماذا قال لي؟ نظر إليّ بحزن على نحو غريب وقال: «نعم يا سيدة بنسون، إن الزواج السعيد يجعل الأمور أسهل، أليس كذلك؟».

أعقب كلماتها صمت، فسارعت إلى التوضيح:

- كانت الطريقة التي قال بها ذلك! بدا هناك شيء خفي في صوته، كأنه يحسدني، لكن بطريقة لطيفة.

قال السيد ترافيس:

- كان يكتب إليها الرسائل باستمرار. لقد ساعدت القبطان على جمع متعلقاته الشخصية وإغلاق صندوقه منذ فترة قصيرة، وكانت هناك رسالة موجهة إليها على المكتب.

أضاف على عجل:

- كانت الرسالة مختومة. إنها تعيش في سنترال بارك ويست، وهو حي أنيق جدًا، يُسكن الرجال به عشيقاتهم، وما إلى ذلك، حسب ما يقال.

اختتم حديثه بصوت واهٍ، عندما وجد السيدة براون تحديق إليه فجأة.

هز نات رأسه يمينًا ويسارًا بحزن:

- أتساءل كيف سيكون شعورها عندما تكتشف ذلك!؟

قال السيد ترافيس:

- لا توجد امرأة تستحق كل هذا.

ثم اعتذر في اللحظة التالية قائلاً:

- باستثناء الصحبة الحالية.

لكن لم يضحك أحد.

وجدت السيدة بنسون الكلمات تتطاير بسرعة من فمها:

- أنت محق تمامًا، لا توجد امرأة تستحق الموت من أجلها. لكنني لست ممن يدافع عن بنات جنسي، فهناك نساء صالحات، وهناك نساء سيئات. لا بد أنها عاملته معاملة سيئة للغاية لتدفعه إلى الانتحار. أراهن أنني أستطيع تخمين أي نوع من النساء هي السيدة ستانديش: امرأة باردة بلا قلب. ربما كانت تغازل كل رجل تصادفه، وفي النهاية هربت مع رجل آخر.

قاطعها نات بحماس:

- لكن على الرغم من ذلك، هل كنت أنا أو أي رجل آخر في هذه الغرفة سيقفز من سفينة وسط المحيط بسبب امرأة؟

قالت السيدة بنسون:

- كان هناك طفلان، وكان السيد ستانديش من النوع الهادئ المحب للمنزل، كان يمكنك رؤية ذلك بسهولة. لقد بدا ضائعًا جدًا وهو يسافر متقلًا في الأرجاء. لا بد أنه شعر بأن حياته قد تحطمت عندما هربت زوجته مع عشيقها ذلك. ولا بد أنه قام بهذه الرحلة في محاولة لنسيان كل شيء، لكن أعتقد أنه لم يستطع أن ينسى.

بدا الحزن في عيني نات:

- لطالما بدا منهكًا، كأنه جائع.

قالت السيدة بنسون:

- لقد كان بائسًا، وعانى بمرارة. يا للسيد ستانديش المسكين!

أخذ الليل يهبط بسرعة الآن، وسرعان ما سترفرف الأضواء الكاشفة فوق البحر. تنهدت السفينة «أرابيلا» وسط الزرقة السماوية، كأن عظامها مترددة في العودة بعد أن قطعت كل هذه المسافة الطويلة في اتجاه واحد. ذرع القبطان بيل جينة وذهابًا على السجادة الخضراء في مقصورته، وهو يتمتم لنفسه بسخط، بينما استلقى الرجال في هدوء في مكان إقامة البحارة في مقدمة السفينة، وقد بدا الغضب والتجهم في نظراتهم، كأنهم يلومون السيد ستانديش المفقود على إفساد المجرى الهادئ لرحلتهم. وكان عامل اللاسلكي قد أرسل بالفعل رسالة موجزة إلى مكتب الشركة في بنما يخبرهم بالكارثة، لكن القبطان بيل رأى من الحكمة ألا يرسل رسالة إلى السيدة ستانديش حتى يتأكد من استحالة إنقاذ زوجها. وكان متأكدًا بالفعل، لكنه أراد التيقن بما لا يدع مجالًا للشك، حيث سيبدو بالغ الحماسة إذا أرسل الرسالة ثم عثروا على الرجل بعدها مصادفة.

دخل غرفة الطعام المهندس المساعد الثالث، وهو شاب غير مبالٍ، وقال للنادل:

- سكوتش وصودا.

ثم التفت إلى السيد ترافيس، وقال:

- لقد حقق باجزي فوزًا ساحقًا!

- فعلها باجزي!

نهض السيد ترافيس من مكانه، وعيناه تلمعان بالشك، وغادر المجموعة فجأة، كما تركهم أيضًا في حيرة بشأن هوية باجزي.

جلس العجوز نات متأملًا، محاولًا التفكير في ستانديش، لكن رغمًا عنه تسللت إلى ذهنه أفكار صغيرة مضحكة: أشياء قالها لزوجته قبل أن تموت منذ سنوات عديدة، والمرّة التي سقط فيها من عربة قش عندما كان في سن المراهقة. تنهدت السيدة بنسون في سكينه وسرور، بينما شرد السيد والسيدة براون في عالم من الأفكار الدينية المجردة.

قالت السيدة بنسون فجأة:

- حسنًا، على الأقل مات ميتة سريعة.

بدأ السيد والسيدة براون بحركان شفاههما وهما يصلبان في وقت واحد، لكن لم يكتشف أحد ما إذا كانا يصلبان للسيدة بنسون أم للسيد ستانديش. ثم وضع المهندس المساعد الثالث أسطوانة على الفونوغراف، وسرعان ما بدأت ثلاث فتيات في غناء لحن بسيط بريء، شيء عن الحب اليائس.

نهض السيد والسيدة براون فجأة في الوقت نفسه.

قال السيد براون للسيدة براون:

- دعينا نأخذ جولة حول سطح السفينة ونتأمل النجوم.

قالت السيدة براون:

- نعم، فلن فعل.

- كنت مستلقيًا في البحر، وظهري يؤلمني، والتصق لساني بسقف فمي.

أخذ ستانديش يفكر في اليوم الذي سيصل فيه إلى بنما على متن السفينة «أرابيلا»، حيث سيجمع حوله الصحفيون ليسألوه عن شعوره وهو عالق في البحر كل هذه المدة الطويلة. سيكون هناك الكثير منهم، إلى درجة أنه سيقترح عليهم الذهاب إلى غرفة الطعام.

تمتم ستانديش قائلاً:

- لنذهب إلى غرفة الطعام للحصول على مزيد من الراحة.

- لنذهب.

بعد ذلك، حاول ستانديش أن يتذكر اسم فتاة المجتمع التي تعثرت على الدراج في ليلة ظهورها الرسمي الأول أمام المجتمع. أجهد عقله، لكنه لم يصل قط إلى حد تذكر اسمها، الذي كان (ولا يزال) الأنسة أديليد فان ديفاندر. فكر في هذا الأمر، وفي أشياء أخرى بشكل عشوائي، لأنه أدرك أن الشمس تغرب. وكان ذلك أمراً غريباً حقاً، فعندما كانت الشمس عالية في السماء، بدت كأنها ستستغرق ساعات قبل أن تتحرك بوصة واحدة، لكن بمجرد اقترابها من الأفق غاصت بسرعة هائلة نحو ذلك الخط المميت.

سيحل الظلام عندما تعبر الشمس ذلك الخط. بدا كل نفس يتنفسه مهمة مستحيلة، وتوترت جميع عضلاته على نحو يفوق القدرة البشرية على التحمل. وفجأة، أدرك ستانديش شيئاً مأساوياً: لا يفكر الناس حقاً في الموت إلا عندما يدنو منهم مباشرة. وخلال الساعات القليلة الماضية، تمالك نفسه، إن جاز التعبير، ووجه أفكاره بخشوع نحو موضوع الآخرة. لكن النتيجة الوحيدة هي أن عقله تلاعب به وخدمه ببعض الحيل الفظيعة، فظل يحرف أفكاره حتى يعود إلى التفكير في إمكانية النجاة. لكنه شعر الآن بتغير خفي يحدث في عقله، وقرر ستانديش أن هذا التغيير له جذوره في الحادث المحتوم الذي وقع قبل عشر دقائق. فقد أصبح البقاء طاقياً بمنزلة حركة لاإرادية بالنسبة إليه، حيث كان يتنفس شهيقاً وزفيراً بشكل رتيب وتلقائي في الأوقات المناسبة، وتمكن من إبقاء أنفه فوق الماء دائماً على ارتفاع جزء صغير من البوصة. لكن قبل عشر دقائق، دفعه الإرهاق إلى ارتكاب زلة، فقد ترك أنفه يغوص تحت الماء، وبدأ يتنفس من دون تفكير. استنشقت الكثير من الماء، وليضع لحظات من الذعر سعل وبقى رعيه في البحر، ثم استلقى على الماء مرة أخرى بعد أن أنهكه التعب. لكن ذلك كان بداية التغيير الدقيق الذي سمح له، كما أدرك الآن، بالتفكير بشكل أكثر ثباتاً في الموت.

من خلال عينين نصف عمياوين راقب ستانديش غروب الشمس. بدت الشمس كأنها تقول: «سأفهم لك مشهداً نادراً ما رأيت مثيلاً له من قبل». بدت الشمس كأنها تنفخ صدرها وتنتهي بروعتها، قائلة: «فلتشاهدني وأنا أرمس عروفاً في السماء بهذا اللون الأرجواني. وها هو ذا خط من اللون الوردى الرقيق يبلغ طوله ألف ميل. وهذا مزيج من الألوان لا يجد الإنسان كلمة لوصفه، سوى القول إنه رائع».

لاحظ ستانديش أن أمواج البحر تزداد قوة بعض الشيء، وشعر بقشعريرة رهيبية تسري في جسده الأزرق الخدر. حسناً، سيكون لدى أوليفيا ما يكفي من مبلغ التأمين، إلى جانب حصة في شركة بيم وبينجلي وستانديش، أو ربما يعود الاسم ليصبح بيم وبينجلي بعد فترة الحداد التقليدية. شك نوعاً ما أن هذا ما سيحدث بالفعل، لكنه أدرك أنه لن يستطيع فعل شيء حيال ذلك. وكان الطفلان أصغر من أن يكبرا بلا أب، لكن ستانديش تخيل أن أوليفيا ستزوج مرة أخرى بعد فترة، إذ كانت جميلة ولا تزال في ريعان شبابها، لم يحمل ضعيفة ضدها بسبب تلك الفكرة، لأنه نالها أولاً قبل غيره. ومع ذلك، سيكون أمراً مزعجاً أن تضطر إلى مغادرة الشقة في سنترال بارك ويست بسبب وفاته، وهي العادة التي لطالما بدت بلا معنى بالنسبة إليه. أما الأسوأ من ذلك كله، فسيكون هناك أسبوع أو ربما شهر من التعاسة لأوليفيا بعد أن تعلم بوفاته. أزعج ستانديش الاعتقاد بأن أوليفيا ستعاني التعاسة بسبب بقاءه شحم.

لكنه فكر فجأة في أن هذه على الأقل كانت طريقة نظيفة للموت: فقد غسل جسد المرء جيداً، ولم تلمسه أيضاً اليد الرطبة لمتعهد دفن الموتى. كانت طريقة صعبة للموت، لكنها على الأقل لم تتضمن تأخيراً لا مبرر له في غرفة مستشفى باهظة الثمن تحت خيمة الأكسجين. كانت حقاً طريقة كريمة للموت، على الرغم من قسوتها على أحبائه المرء، لأن الظروف أفسدت عليهم فرصة ذرف الدموع في اللحظة المناسبة، فسيكون عليهم حقاً أن يبكوا بكاءً منقطعاً، من دون أن يعرفوا ما إذا كانت النموع تقيد أرواحهم. كانت طريقة موحشة للموت، لكن ذلك لم يشكل أي فرق، لأن كل حالات الموت، بما في ذلك التواني القليلة التي يستغرقها المرء للسقوط من فوق السطح، كانت فريدة وموحشة تماماً، ولم يكن الإنسان يفكر إلا في نفسه في النهاية. كما كانت طريقة نبيلة للموت أيضاً بسبب الشعور الشديد بالوحدة. قليل من الرجال منذ بدء الخليقة ماتوا بهذه الطريقة بالضبط، وخدمهم. ففي البحر على متن سفينة، تصبح السفينة مركز كونك، وفي البحر، داخل جسدك، تصبح أنت نفسك العقدة التي تتجمع عندها كل الخيوط الدنيوية.

لأول مرة، أصبح قادراً على التفكير بوضوح في الطريقة المؤسفة التي سقط بها من السفينة «أرابيلا». ولساعات طويلة، وهو مستلق في الماء، وبخ نفسه على ما اعتبره غباءً فادحاً، وشعر بأنه لن يستطيع أن يسمح نفسه أبداً لفشله في جذب انتباه رفاقه على السفينة فور سقوطه في البحر. لكنه فهم الآن صرامة موقف الطبيعة تجاه أشكال الحياة كلها. اعتقد أنه لو كان يتمتع برنة أقوى بعض الشيء، لكان بأمان على متن السفينة «أرابيلا» في هذه اللحظة، وربما كان يهضم عشاءه، ويتحدث إلى نات آدمز. لكن هذا هو أسلوب الطبيعة: تعطيك خصائص معينة تخوض بها معاركك في العالم، إما أن تنجح، وإما أن تقشل في تدبر حالك بما منحك إياه. كان البعض يتمتع بالقوة البدنية، والبعض الآخر بالعقل، كما كان البعض يتمتع بالسرعة، والبعض الآخر بالقدرة على التحمل. كان للأجلاف ومغني الأوبرا أصوات قوية وعميقة، لكنها لم تكن ذات جدوى في مكتب السمسة. بصرف النظر عما لديك، يجب أن ترضى به، هذا هو بيت القصيد. لا يمكنك العودة إلى الآلهة والحصول على مميزات أخرى. أدرك ستانديش الآن ما يمتلكه: ثقافة من نوع ما، بما في ذلك سلوكيات متصلة من اللباقة، وعقل يقدر الأشياء الأكثر هدوءاً و«الأرقى» في الحياة. كما كان لديه أيضاً قانون صارم: كن لطيفاً مع الأطفال، واحن للسيدات، لكن من دون المغالعة، وامش على الجانب الأيمن من الشارع، وما إلى ذلك من هذا النوع من الهراء. أدرك ستانديش أنه لا يوجد شيء مفيد بدرجة كبيرة، بل لم يكن هناك شيء مفيداً على الإطلاق بالنسبة إلى السباحة في المحيط، باستثناء ذلك الجزء من قانونه الذي منحه ما يعرف بالإرادة الحديدية.

وعندما نظر إلى الأمور من هذا المنظور شعر بتحسن كبير، على الرغم من ألمه وعطشه الشديد. صارت الشمس الآن كرة برتقالية من النيران، تسرع إلى موعداها على الجانب الآخر من العالم، الواقع تحت الأفق. سيطر الذعر على ستانديش عندما نظر إلى الشمس. صار في إمكان المرء النظر إلى الشمس الآن لدقائق متواصلة من دون الحاجة إلى خفض عينيه. أدرك ستانديش أن عينيه اللتين أصبحتا الآن شبه عمياوين تماماً، لم تعودا تريان إلا الشمس وهي تغرب فوق البحر الذي لا يرحم.

تمتم ستانديش:

- ثلاث عشرة ساعة وأنا منجرف في البحر. من المؤكد أنهم اكتشفوا الآن أنني مفقود، أليس كذلك؟ هذا معقول، أليس كذلك؟ لا بد أنهم استداروا للبحث عني منذ خمس ساعات على الأقل. والسفينة لديها أضواء كاشفة، يمكنهم أن يجدوني في الليل. يجب أن أساعدهم في العثور علي!

أخذ النهار يتلاشى على نحو غير محسوس. وعلى الرغم من أنه كان بالكاد يستطيع أن يرى، فإنه لاحظ التغير الدقيق في ألوان المحيط والسماء. كانت السيدة بنسون في طريقها إلى بنما لمقابلة السيد بنسون، وكان نات آدمز ذاهبًا في رحلة ممتعة عبر أمريكا الوسطى. شعر ستانديش بأن عليه الوصول إلى أوليفيا، ولو لرؤيتها والتحدث معها لحظة. و فجأة أحس بقلبه ينبض بعنف، ثم شعر بألم رهيب في صدره. لم يتصرف قلبه بهذه الطريقة من قبل، فطالما كان قلبًا طيبًا، قلبًا صادقًا، التزم مكانه في خلفية حياته، وأدى عمله بهدوء ودقة. والآن ها هو ذا النهار ينتهي، والليل يحل، وقلبه يحتج على عبء لا يطاق.

ابتسم ستانديش بمكر. سيخضعهم جميعًا، أيًا كانوا المسؤولين عن ذلك. سيسبح عائداً إلى السفينة «أرابيلا». سيسبح عائداً حتى لو اضطر إلى السباحة طوال الليل، تحت مظلة النجوم المخفية. سيصبح الرجل الخارق لكل العصور، وسيلحقه الصحفيون في بنما ونيويورك وأينما ذهب. ستكتب عناوين الصحف: «الرجل الذي سبح طوال الليل في بحر موحتش». وسيحصل على أوسمة الشجاعة والقدرة على التحمل والصدق والأمل الذي لا يموت. وسيدعوه مشاهير الرياضيين إلى العشاء، وسيجوب البلاد منتصرًا. سيدفع بيم وبينجلي إلى الخلفية بسبب هذا الإيجاز الرائع، وستعين عليهما قبول وضعهما الأدنى بكل أريحية. أما طفلاه، فسيكبران فخورين بوالدهما، وخصوصًا هنري الصغير الذي سيقدم ذلك كونه رجلاً.

صاح ستانديش، على الرغم من عدم صدور أي صوت تقريبًا من حلقة الجاف:

- غداً! عد واسبح. عد واسبح.

انطلق، بعدما حدد اتجاهه بجنون، في اتجاه السفينة «أرابيلا». كان من المريح جدًا التخلي عن وضعية الطوف، وشعر على الفور بتحسن كبير في ظهره، إلى درجة أنه تساءل لماذا لم يفكر في ذلك من قبل!

- واحد، اثنان، ثلاثة، تنفس! واحد، اثنان، ثلاثة، تنفس!

شق هنري بريستون ستانديش طريقه في الماء بضربات زحف كان من شأن أداؤها الممتاز أن يسعد قلب مدرب السباحة في النادي الرياضي في نيويورك. شعر في بعض الأحيان كأنه سمكة، قدر لها منذ ولادتها أن تعيش فقط في البحر، وتقدم في المحيط المالح بكل سلاسة وإتقان. استجاب جسده للمهمة الواقعة على عاتقه بتناسق أدهش عقله وأسعدته. فقد كانت أصابع قدميه مفرودة، وركبته مشدودتين، ويدها وظهوره مقوسة. وبينما كان يركل ويضرب بزراعيه كطاحونة هواء، زفر ببطء من أنفه في ثلاث ضربات، ثم أدار رأسه وأخذ شهيقًا سريعًا من خلال فمه في الضربة الرابعة. فاض عقله بالفخر الغامر بقواه البدنية الخارقة. فبمثل هذا القلب وهذه العضلات القوية، وبمثل هاتين الرئتين اللتين لا تقهران، سيصل إلى السفينة «أرابيلا»، ولو استغرق الأمر حتى الصباح! وبينما كان يدير رأسه ليتنفس وهو يشق طريقه في الماء، رأى أمامه الشمس وهي تغرب في الأفق، أو لا بشكل كروي، ثم نصف دائرة، ثم هلال بالوان برتقالية. شعر بأنه لو استطاع أن يمد يديه لأمكنه أن يلمسها ويمسكها ويتسلقها، ويربح جسده المرهق بدرجة لا تصدق على حافظتها العريضة. غرق البحر في الظلال، ولم يشعر ستانديش إلا بجسده الذي أنهكه الألم وهو يندفع بسرعة عبر المياه المالحة، والكرة البرتقالية العارقة أمام وجهه.

توقفت فجأة عن سباحته المحسومة، توقف بغتة كأن رأسه اصطدم بجدار من الطوب يرتفع من البحر. حل الليل، وغابت الشمس، ولم يعد هناك إلا شفقتها الخافت على المياه والغيوم المهيبة التي تتلألأ فوقه بالوانها البراقة. وعندما توقف، وجسده المنهك ممدد في البحر، صدمته الفكرة وملاته بفزع رهيب. كان يسبح في الاتجاه الخطأ. ابتعد مسرعًا بأخر ما لديه من قوة، بعيدًا عن السفينة «أرابيلا»، بدلًا من أن يسبح في اتجاهها. كان يسبح في اتجاه الشمس، والشمس تغرب في الغرب، لطالما كانت الشمس تغرب جهة الغرب. لكن السفينة «أرابيلا» كانت تبحر شرقًا، كما كانت تبحر عند شروق الشمس حينما سقط في البحر، شرقًا في اتجاه الشمس التي ستشرق في صباح اليوم التالي.

صاح ستانديش:

- لماذا فعلت ذلك؟

على الرغم من أن الكلمات لم تخرج من حلقة الجاف. كان يعرف السبب، إذ كانت الشمس هي كل ما بقي له من أمل يتشبث به، وقد نسي أن الأرض استمرت في الدوران خلال الساعات الثلاث عشرة التي قضاها في البحر. والآن حتى لو كانت السفينة «أرابيلا» قد استدارت للبحث عنه، فقد جعل الأمر أكثر صعوبة. ولم تعد لديه القوة لمعاودة السباحة مرة أخرى. حل المساء، وسرعان ما سيخيم الليل. وقد حل الليل بالفعل، وظهرت النجوم الخافتة، نجوم المساء، وزحف ظل أزرق على هذا العالم الكئيب. ومن خلال عينين ألمّ بهما شعور حارق، وكادتا تعميان تمامًا، راقب ستانديش النجوم وهي تشرق وتكتب أسماءها على قلبه المضنى. ارتجف جسده بفشعريرة مؤلمة، وبدت شفاته أرجوانيتين كالسما الداكنة، السماء المهيبة الأخاذة والموحشة. أدرك الآن أنه لا يوجد شيء أكثر فظاعة من أن تكون آخر رجل في عالم مسطح، وحيدًا تمامًا في مركز دائرة مجنونة. كان المكان هنا موحشًا تمامًا بحيث لا يمكن لإنسان متحضر أن يتحملة. بدأ ستانديش يموت. شعر بنفسه يحتضر، وظن أنه سعيد. تجول بعينيه العميوان على نحر محمول في المياه المظلمة حوله، وهو يتلمس بعض الحطام ليتشبث به. لكن تلك لم تكن إلا لفته تحذير أخيرة من ستانديش الذي أراد أن يعيش، أما ستانديش المحتضر فقد كانت لديه أشياء أخرى ليفعلها. وبكل سعادة وحنون، فعل شيئًا رغب بشدة في القيام به منذ ساعات عديدة: غطس وفتح فمه، وبنفاد صبر ابتلع الكثير من الماء المالح المرير. امتص جرعات كبيرة، ولم يشعر بمرارة الماء تقريبًا، حتى تأكد أنه يحمل في جوفه أقصى قدر يستطيع من الماء: ماء من الداخل والخارج، وما بينهما سوى مجموعة من العظام والدم واللحم فقط.

وفي الدقيقة التالية، شعر ستانديش بالندم على نحو رهيب ومثير للشفقة. كان ارتياحه للشرب سريع الزوال، وسرعان ما تقيأ واحتقن في بؤس شديد. وفجأة سمع نفسه ينطق بصوت أجش غير إنساني:

- أنجدوني! أنجدوني!

ثم أصابه التشنج الأول. انثنى على نفسه مثل قبة الأوبرا بسرعة لا تقاوم، أذهلت الجزء الضئيل من عقله الذي كان لا يزال قادرًا على ملاحظة ما يحدث بدرجة ما من الموضوعية. انثنى جسده، ووجد لدهشته المطلقة أنه غير قادر على فرده. صار تحت الماء الآن، يصارع ويركل ويحاول رفع يديه اللتين تخمشان نحو السماء، بينما يجيب أنفاسه على نحو مؤلم. صدمه بقوة إدراكه أن جسده لن ينفرد مرة أخرى، وأنه سيموت وهو منثنٍ على نفسه. صدمته الفكرة كأن مقاتلاً أرسل ضربة إلى فكه بقبضة عارية. وقيل أن يدرك ما يفعله، استنشق الماء المالح القاسي، وأحرق حلقة من الداخل، بينما هو يحاول التخلص منه بكل ما تبقى من قوة في جسده المنهك. لكن عندما أدرك أنه محاصر وغير قادر على الصعود إلى السطح، ومن ثم محكوم عليه بالاختناق، توقف ستانديش فجأة عن المقاومة. اجتاحت ذهنه حالة من اليأس الكئيب، كأن بدأ من الفولاذ، لن ترخي قبضتها أبدًا، قد أطيقت على عنقه. بدا وجهه قناعًا من القنوط المطلق، حيث إنه في لمح البصر رأى وفهم القصة الساخرة الكاملة لسوء حظه.

كانت هناك ربان للأقدار، وليست ربة واحدة فقط، حيث كان في إمكانه أن يقاوم واحدة فحسب، لكنهن كنَّ عدة ربان، وقد مسح العالم بأعينهن الحادة كالنصور، وفي النهاية تبَّين نظراتهن عليه، هو وحده من بين الملايين الذين يعج بهم العالم. ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا، أضحي مجرد فأر تافه تلاعبت به الأقدار بمخالب قوية كالقنوط، لا لشئ إلا لبعوض التسلية الأنانية، فنقلته عبر قارة، وأرسلته عبر قناة بنما إلى سان فرانسيسكو، وصولًا إلى الأسكا قبل العودة مرة أخرى، وأجبرته على إجراء مكاملة هاتفية بعيدة المدى مع أوليفيا في نيويورك، وشحنه إلى هونولولو، وأرسلته لتناول العشاء في الفندق في الوقت الذي كان فيه ذلك الرجل الغريب - ذلك الرجل الذي لم

يستطع ستانديش تذكر وجهه على الرغم من أنه رأى كل شيء آخر بوضوح مذهل - يستمع إلى موظف الاستقبال وهو يتحدث عن السفينة «أرابيلا». لا بد أن هذا الأمر برمته كان مضحكًا جدًا بالنسبة إلى القبط الماكرة التي تمثل الأقدار، وكم كان من المضحك بالنسبة إليهن الآن أن يشاهدنه يخوض صراع الموت الذي لا مفر منه! لا بد أنهن جميعًا واقفات حوله الآن، منحنيات وهن يراقبن ويتهايمن:

- انظرن، انظرن كيف يتغضن وجهه وتجحظ عيناه من رأسه. لا تفوتن هذا، هذا جيد. ها! إنه يحاول الصعود إلى السطح، لنصبيه بمزيد من التشنجات العضلية.

لا بد أنهن يشعرن بالفخر بأنفسهن على هذه الدعاية الرائعة: إجباره على الصعود على متن السفينة «أرابيلا»، وجعله يحب الاستيقاظ مبكرًا ليرى شروق الشمس، وانتظار اليوم الثالث عشر، ثم وضع بقعة شحم تحت قدمه، ودفعه إلى البحر بأيدي خفية. كان مجرد دمية تتدلى على نحو بشع فوق مسرح المحيط الهادئ، مربوطًا بخيوط تصل إلى السماء، وكل ذلك من أجل تسليتهن المريضة.

شعر ستانديش بنفسه يختنق، وأدرك على نحو مأساوي أنه يموت مختنقًا، لكن بطريقة ما، لم يرغب في فعل أي شيء حيال ذلك، ولم يعد يهتم بالمزيد من المقاومة. كانت المعركة خاسرة، فما الفائدة؟ لكنه سيريهن. سيتمالك نفسه ويموت بكرامة، ولن تتاح لهن فرصة أخرى للضحك عليه. سيزيل خطوط الألم عن وجهه، ثم يموت بشجاعة بحيث يخيم الصمت على العالم كله. وفي خضم ذلك الصمت ستقف ربات الأقدار صاغرات، وهن يشعرن بالعار الذي يحرق ظهورهن. وستتلاشى الابتسامات المتعالية من على وجوههن، وسيخترقهن الندم حتى النخاع، ولن يستطعن التخلص منه أبدًا. في واقع الأمر، فكر ستانديش في أن الهدوء صار شديدًا جدًا الآن، ولم يتذكر أنه شعر بمثل هذا الهدوء التام المमित في حياته من قبل. وفجأة، وقع ألم حاد وغامر على جسده، كأن شيطانًا ما طعنه في عنقه، وحزها بوحشية من الأذن إلى الأذن. فكر ستانديش بتجرد غريب، في أن هذا لا بد أن يكون قلبه وهو ينفطر.

فكر ستانديش في أنه لم يمُت بعد. لكنه لم يكن حياً أيضاً، وقيل أن يتعد تاركاً أشلاء الهامدة لتتولى أمر نفسها، سيكون من الأفضل أن يفكر في الحياة كما عاشها، لا في الأحداث العادية (توبيخ والده له، وعودته إلى البيت ذات يوم وأنفه ينزف دماً، وتلك الفتاة في ذلك الفندق الفرنسي، وتلك المرة التي كاد يحتكر فيها سوق الفلفل الأخضر)، بل في الأشياء الاستثنائية التي حدثت في سنوات عمره الخمس والثلاثين غير الكافية. ومع كل فكرة من هذه الأفكار شعر بوخز في قلبه الذي تحطم، وخز من الندم، لأنه لا يستطيع الاستمرار كثيره من الرجال في حوض تجارب جديدة استثنائية يوماً بعد يوم.

والأكثر غرابية هو أن قلبه ظل ينبض خمساً وثلاثين سنة من دون أن يتوقف مرة واحدة ليشارك هذه المهمة التي لا نهاية لها، والتي لا يلقى شكراً مقابلها. لم يخطر بباله طوال تلك المدة مدى أهمية قلبه بوصفه عضواً، ولم يتوقف قط، ولو لمرة واحدة، ليفكر في أنه لو أراد قلبه ذلك، لكان في إمكانه قتله منذ زمن بعيد بمجرد أن يقرر التوقف عن النبض لنصف ساعة أو نحو ذلك.

والعجيب أيضاً أنه لم يُعانِ الجوع أو العطش قط في حياته كلها. ففي طفولته، كان يفسر الشعور بالعطش بأنه يرغب في تناول المياه الغازية بالمتلجات، وفي وقت لاحق من حياته عندما كان يقول إنه يشعر بالعطش، كان يعني أنه يرغب في تناول البيرة أو السكرتس والصدودا. لكن المعنى الحقيقي للجوع والعطش، أي الجوع إلى الخبز والعطش إلى الماء، لم يكن له وجود بالنسبة إليه، بدا من الغريب أن يتعلم الكثير عن الحياة، في الوقت الذي لم يكن يعرف فيه حقاً إن كان حياً أو ميتاً. لكن الأمر كان كذلك مع السمائر والنيكوتين أيضاً، فلم يحدث قط طوال سنواته السبع عشرة التي قضاها في التخخين أن شعر برغبة في سيجارة من دون أن يشبعها. بدا من العجيب حقاً، عندما فكر في الأمر، أن حياته كلها كانت على هذا النحو، حيث حصل دائماً على كل ما يريد، ولم ينقصه الكثير: الأدوات الرياضية والدرجات الهوائية والزلاجات في مرحلة الطفولة، والملابس الفاخرة والسفر إلى الخارج وسيارته الخاصة خلال فترة المراهقة، والمال الذي كان ينفقه في الجامعة، والنادي المناسبة، والعمل الجيد، والزوجة الصالحة، والطفان فيما بعد.

حصل على كل هذه الأشياء، لكنه حُرِم من الشيء الوحيد الذي أراده الآن بكامل رغبته. قال ستانديش لنفسه، وهو يشعر ببرودة وخدر غريبين تحت الماء: «لقد حصلت على كل شيء من دون أن أطلبه حقاً، والآن أريد ألا أموت، لكنني لن أحصل على رغبتي هذه. أعلم أنني لن أحصل عليها. ومهما تمنيت بشدة، ومهما فعلت، ستبقى رغبة واحدة لن تتحقق.»

جعلته هذه الفكرة يشعر بالأسى، وتخل نفسه بزم شفثيه، عابساً كالطفل. لن يذهب مرة أخرى لتنتزه في سنترال بارك مع الطفلين بعد ظهيرة يوم الأحد، حيث يمر بأباء آخرين مرتدياً زهرة في عروة سترته. أنهش أنه العالم يمكن أن يستمر من دون أن يعيش فيه هنري بريستون ستانديش، ومع ذلك ساوره شك قوي في أن هذا هو ما ينوي العالم فعله بالضبط. لكن العالم سيكون مقفراً بشكل رهيب إذا أصبح تحت الأرض بدلاً من فوقها. سيكون هناك الكثير من الثغرات الفارغة التي يستحيل ملؤها، إلى درجة أن ستانديش تسامع كيف سيبدو العالم حاله! من سيجلس على الكرسي المريح في غرفة مكثبه، ويقرأ المجلات كل ليلة تقريباً؟ كانت تلك مشكلة واحدة فقط: لا بد أن يجلس شخص ما على الكرسي المريح، فلا يمكن أن يستمر إلى الأبد من دون أن يشغله أحد، لأن الكراسي المريحة صُنعت ليجلس عليها الناس. لن تمتلك أوليفيا الشجاعة الكافية للجلوس عليه، لأن ذلك سيعيد إليها الكثير من الذكريات. ومن المؤكد أنها لن تسمح لرجل آخر بالجلوس عليه، حيث سيكون هذا وقاحة لا تتناسب على الإطلاق مع أوليفيا. ستكون هناك فجوات في كل مكان من دون أي خطأ منه: فجوة في جيب عامل المصعد في عيد الميلاد القادم، وفجوة في دليل الهاتف، وفجوة في ترويسة قرطاسية المكتب. بل إنهم سيصنعون مزيداً من الفجوات في الأماكن غير الضرورية: سيدفعون لرجل ليكشط اسم «ستانديش» من على باب الشركة، وسيزيل حارس المبنى اسمه من صندوق الرسائل. وسرعان ما سينتشر الخبر بين مئات المتاجر والشركات التي ترسل نشرات بريدية: «لا ترسلوا أي منشورات إلى هنري بريستون ستانديش بعد الآن، لقد مات.»

هن ستانديش رأسه بحسرة من دون أن يهزه على الإطلاق في الواقع. كان هناك الكثير من الأماكن التي اعتاد الذهاب إليها، حيث كان من الطبيعي أن يذهب إليها، والتي ستحتوي من الآن فصاعداً على مجرد فراغات. ستمتلئ مدينة نيويورك بالفراغات التي لا يمكن أن يملأها أحد سوى هنري بريستون ستانديش الحقيقي: خزائنه في النادي الرياضي، والتجويف الموجود في فراشه، وسترة العشاء خاصة، على سبيل المثال لا الحصر. لا يمكن أن يملأ هذه المساحات سوى ستانديش الحقيقي فقط، أما أولئك الذين سيأتون ليحلوا محله فسيصومون بوصفهم مزيفين من قبل أمه وأبيه وزوجته وطفليه.

أوليفيا وهنري الصغير وهيلين... كيف سيمكنهم تدبير أمورهم من دونها؟ يمكن للمرء تأجيل هذا السؤال ما دام لا يحتضر بالفعل، لكن في لحظاته الأخيرة، يرى مدى خطورة الأمر حقاً. لقد أحب أوليفيا وأنجب الطفلين، وقد أدركوا دوره في حياتهم. وكان فصلهم عن بعضهم أشبه بفصل التوأمين السياميين، فكلهما يموت دائماً، وإن كان الأطباء يأملون عادة أن يعيش أحدهما. واعتترف ستانديش لنفسه بأن هناك أزواجاً وآباء قد ماتوا من قبل من دون أن يؤثر ذلك في حياة زوجاتهم وأولادهم تأثيراً خطيراً، لكنه قرر بصرامة نوعاً ما في اللحظة التالية أنه مختلف. أوليفيا والطفان سيقبلون أنفسهم عندما يعلمون بموته. كان الأمر أفضل بهذه الطريقة، من الأفضل لهم جميعاً أن يموتوا دفعة واحدة. فلن يشعر حينها بالوحدة اللعينة في الخطوات القليلة القصيرة التي يجب أن يخطوها إلى قبره المائي.

قال ستانديش لنفسه إنه يشعر كأنه رنين جرس. وكانت هذه أول ملاحظة غير منطقية على الإطلاق يتذكر أنه أبدأها في حياته، ومع ذلك لم يشعر بالحماقة حيال ذلك، لأن هذا بالضبط ما شعر به، تماماً مثل رنين الجرس. تخيل أنه لو كان يحتضر في المستشفى، وعائلته مجتمعة حول فراشه، ما كان ليخطر بباله قط مثل هذا الشيء الرائع. لكنه كان بعيداً تحت المحيط، في ظلام دامس، ولم يُعد يتنفس، وامتلا بالماء من الداخل والخارج، وأحس بسلام غريب، كأن الزمن توقف. وقد أثار تلك الفكرة الرائعة الأولى أفكاراً أخرى تزامت في ذهنه، وبدا الأمر أشبه بكابوس هادئ، ليس لطيفاً ولا مزعجاً، عاشه في نيويورك ذات مرة عندما دخن الكثير من السجائر قبل الذهاب للنوم. ظهر جميع أصدقائه، وقد لولا قسماتهم على نحو هزل، ومكتوا دقيقة ليخرجوا السننهم ثم اختفوا، بينما اندفع آخرون للدخول إلى المشهد متجهمين، وقد نفخوا خدودهم، واصطنعوا بأعينهم وشفاهم تعبيرات وحشية. لكنهم لم يتمكنوا من خداعه، فقد استطاع التعرف عليهم جميعاً. فكر ستانديش وهو يهز أصبعه في خياله:

- دعكم من هذا، أنا أعرف من أنتم، فأنا لست أحمق. توقف عن اصطناع الوجه يا هنري الصغير! اخلعي هذا القناع يا هيلين! أوليفيا... ما الذي أصابك بحق الرب؟

فكر في أمه وأبيه وشقيقته، وكيف أنه لن يتحدث إليهم مرة أخرى. وفكر في السفينة «أرابيلا»، وكيف بدأ نات آدمز من دون أسنانه، وكيف تقافز ثديا السيدة بنسون في ثوب السباحة الأحمر. أحمر: استطاع ستانديش رؤية اللون بسهولة، وقرر أنه يجب السيدة بنسون بطريقة ما، ولو أمكنه ترتيب الأمر لأحب أن ينام معها. لكنه رأى الصعوبات، فقد كان ينسى بين الفينة والفينة أنه رجل محكوم عليه بالموت، وكان الأمر مزعجاً للغاية عندما يضطر إلى تذكر نفسه بذلك. قرر أنه يود أن ينام مع كل امرأة ما عدا، ربما، زوجتي بيم وبينجلي، وربما سجل رقماً قياسياً في الإفجور قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. لم تكن هناك نساء في الجوار بالطبع، لكن ربما كانت هناك حوريات بحر. حوريات البحر! ضحك ستانديش من دون أن يضحك حقاً. كان الجميع يعلم أنه لا وجود لحوريات البحر، لكنه لم يُعد متأكداً من ذلك الآن. يمكن أن تكون هناك حوريات بحر، ويمكن أن يكون هناك وجود لنبتون، الذي سيخرج من قاع المحيط، ويطن ستانديش بصولجانه ليزيل عنه الشعور بالخطر.

شعر ستانديش بنفسه يختنق. انفجر العالم المظلم فجأة في عرض مهيب من الألعاب النارية. وانفجرت صواريخ من اللونين الأصفر والأخضر اللامعين أمام عينيه المغمضتين المندھشتين، وتناثرت في سمانه خطوط ونقاط وحيات من الألوان الزاهية. فكر ستانديش وهو يراقب الصواريخ الحمراء والبرتقالية والزرقاء والبنفسجية التي تنفجر:

- هذه هي النهاية. إنهم يقيمون هذا العرض كوداع لي. إنه جميل، ومذهل، كما أنه موحد للغاية.

كان يجب أن تكون أوليفيا والطفلان هنا لرؤيته. سيمسك أيديهم بينما تتفجر الصواريخ، ويضحكون معًا بعنف وجنون. تتم ستانديش:

- أوليفيا ونجمة المساء. طفلان قبالة شمس باردة.

تساءل عما يقوله، وعن معنى الكلمات المشوشة التي تدور في ذهنه.

- وحيد... وحيد! لا أحد لأودّعه. وحدي تمامًا، أراقب نفسي وأنا أحتضر...

(في منطقة هادئة من مقاطعة ويستستستر، تقلّب بينجلي في فراشه بقلق، وهو يحلم بسوق الأوراق المالية التي تنهار بلا هوادة، حاملة ثروته بعيدًا في طوفان من الدولارات المجددة. ومن ذلك الرجل الذي له وجه كفئاح الموت، وأدى إلى زيادة شدة الطوفان؟ توقف الموظف في الفندق في وايبكي عن الكتابة في دفتر الملاحظات، وحدث لحظة طويلة إلى الأمواج التي تضرب الشاطئ الضيق. كان أولئك الحمقى على الواح ركوب الأمواج يحاولون ركوبها كالغزاة الرومان، لكن معظمهم سقطوا على نحو مخز. فكر في أن الأمر ليس آمنًا، ليس آمنًا على الإطلاق، وفي يوم من الأيام سيتأذى أحدهم. وكيف حال ذلك الرجل، الرجل الذي أرسله على متن السفينة «أرابيلا»؟ ماذا كان اسمه على أي حال، ولماذا يفكر فيه من الأساس؟ في نيويورك استيقظت أوليفيا من حلم مزعج. كانت الساعة الواحدة والنصف صباحًا، وانتصبت جالسة في الفراش تحاول أن تتذكر ما حلمت به: شيء ما عن كهف بلا قرار، مظلم تمامًا. لكنها لم تسمع سوى بكاء هيلين الصغيرة في الغرفة المجاورة، فدخلت لتهدئها. استلقى هنري الصغير في فراشه، وعيناه تحدقان إلى الظلام. قال:

- أمي، اجعلي هيلين تتوقف عن البكاء.

وبدت في صوت الطفل نبرة جديدة من السلطة. وعلى متن السفينة «أرابيلا»، وقف السيد بريسك في برج القيادة، وشاهد نيزكًا ينطلق عبر السماء، وفكر في مدى ضعف الأضواء الكاشفة التي يحركها جاسكين وبخار آخر على مهل فوق الماء. وشعر القبطان بيل وهو في مقصورته بأن غضبه قد هدأ فجأة، وأحس بالخجل من نفسه لسبب غير مفهوم. نظر إلى مركبه الشرابي الأربعة، لكنه لم يجد فيه أي جمال. كان السيد بريسك ضابطًا أول جيدًا، ولن يكون شديد الغظظة معه في المستقبل، على الرغم من أنه يجب أن يجعل هؤلاء الرجال يعرفون قدرهم. تقلب جيمي بنسون الصغير بقلق في فراشه، وفتح عينيه لسبب غير مفهوم في شبه الظلام ليجد أمه غير موجودة، حيث كانت تتجول على سطح السفينة وحدها وهي تنتظر إلى النجوم، وترغب بشدة في ممارسة الحب. بقيت ستة أيام أخرى حتى تصل إلى بنما، يمكنها الانتظار. انتبه نات آدمز العجوز فجأة إلى أن وقع حدائه على سطح السفينة يصدر صوتًا كئيبيًا يكاد يكون بلا صدى، وقال لنفسه: «يجب أن أحصل على حذاء كعب مطاطي مثل السيد ستانديش».

ظن ستانديش أنه لا يمكن أن يوجد ألم مرة أخرى يعادل الألم الذي شعر به عندما انفطر قلبه. ومن هذا اللون الأرجواني السحيق جاءته الكلمات شجية على نحو مجنون، وسحبته مرة أخرى إلى أحضان أمه: «لم تكن سوى زغب وجسد دافئ، وقلب ينبض عاريًا أمامي، وصوت حزين كخرير ماء محكوم عليه إلى الأبد بالتدفق من كهف إلى كهف...».

هربرت كلايد لويس وإنقاذ
جنتلمان من السقوط

بقلم براد بيجلو

يصيح هنري بريستون ستانديش، بطل رواية هربرت كلايد لويس «سقوط جنتلمان»، وهو يجاهد للبقاء طاقياً في وسط المحيط الهادئ، منهكاً وقد فقد الأمل في إنقاذه: «اسمعوني! فليستمع إليّ أضحكم، رجاء!». كتب لويس: «لكن بالطبع لم يكن هناك أحد ليستمع، واعتبر ستانديش عدم وجود جمهور هو أحقر خدعة على الإطلاق». توفي لويس بنوبة قلبية عن عمر يناهز واحداً وأربعين عاماً، مفلساً وعاطلاً عن العمل ووحيداً في وسط مدينة نيويورك، ضحية للقائمة السوداء في هوليوود (٥)، ورواياته الثلاث لم تُعد طُبع منذ فترة طويلة: كاتب فقد جمهوره، ولم يأت أحد لإنقاذه.

لكن ما دامت كلمات الكاتب محفوظة، فهناك فرصة لإنقاذ أعماله. وفي حالة «سقوط جنتلمان»، استغرق الأمر أكثر من سبعين عاماً حتى اكتشف أحدهم الرواية الضائعة في محيط الكتب المنسية. وقد جاء المنقذون من جميع أنحاء العالم: من الأرجنتين وهولندا، والآن من إنجلترا والولايات المتحدة. إن قصة لويس التي تدور حول رجل واحد، يموت وحيداً ومنسياً، يكتشفها الآن القراء الذين يجدون أن هذه الكوميديا الحزينة القصيرة تتحدث عن شعور بالوحدة المشتركة، وهو شعور أصبح عالمياً من خلال الإغراق الشامل والعزلة القسرية التي فرضتها جائحة «كوفيد-١٩».

وُلد لويس في بروكلين عام ١٩٠٩، وكان الابن الثاني لمهاجرين يهوديين من روسيا. جاءت والدته، كلارا، إلى الولايات المتحدة مع عائلتها في عام ١٨٨٧ وهي في الثانية من عمرها. ووصل والده، هايمان، بعد ذلك بعام وهو في الثالثة عشرة من عمره، وتدرّب على العمل، لدى أخيه الأكبر صموئيل، خياطاً. وبحلول الوقت الذي وُلد فيه هربرت، كان آل لويس يعيشون في حي براونزفيل عند شارعي تومكينز ولافاييت. وكانت المنطقة آنذاك قلب أكبر جالية يهودية خارج أوروبا، والمحطة الأولى لعشرات الآلاف من المهاجرين من روسيا وأوروبا الشرقية مثل الذي لويس. وبين عامي ١٨٩٠ و١٩١٥، قفز عدد اليهود الذين يعيشون في مدينة نيويورك من أقل من مائة ألف إلى ما يقرب من مليون يهودي. ولتسهيل اندماج أبنائه في الحياة الأمريكية، غيّر هايمان اسم عائلته من لوريا إلى لويس، وأطلق عليهم أسماء «أنجلوساكسونية» قوية: ألفريد جوزيف، وهربرت كلايد، وبنجامين جورج.

بالنسبة إلى هربرت كلايد لويس، كانت براونزفيل بوتقة الانصهار الأمريكية المثالية، على الأقل عند التفكير في الأمر لاحقاً. في عام ١٩٤٣، كتب مقالاً بعنوان «العودة إلى الوطن» لصحيفة «لوس أنجلوس تايمز»، عن زيارته لشوارع طفولته لأول مرة منذ عشرين عاماً. وكتب يقول: «بينما كنت أسير ببطء حول الحي السكني، تاركاً الذكريات تتدفق مجدداً، بدا لي أن الحي القديم الذي عشت فيه كان معجزاً، أعظم معجزة وُجدت على الأرض على الإطلاق. هنا، ولأول مرة، جاء الناس من جميع أنحاء أوروبا والشرق الأدنى والصين، وعاشوا جنباً إلى جنب في أماكن متقاربة، ولم يذبح بعضهم بعضاً». كان يعتقد أن هناك شيئاً ما في الهواء، «جعلنا نشعر بأن معتقدات الآخرين وخلفياتهم ربما كانت لا بأس بها أيضاً».

ومهما كانت ذكريات لويس عن طفولته في براونزفيل وردية، فإنه غادر المنزل في سن مبكرة، وسرعان ما أسس ما أصبح نمطاً مدى الحياة من الإقامة القصيرة والتنقلات المتكررة. ترك المدرسة الثانوية في سن السادسة عشرة، وعمل في مجموعة متنوعة من الوظائف في الصحف المحلية، والتحق لفترة وجيزة بجامعة نيويورك وكلية مدينة نيويورك (ووجد أن «كلتا المؤسستين لا تتناسبان»)، ثم قضى شتاء ١٩٢٩-١٩٣٠ في باريس. عاد إلى أمريكا في مارس ١٩٣٠، وعمل مراسلاً رياضياً في نيويورك بنيجيرسي، ثم انتقل إلى النصف الآخر من العالم تقريباً إلى شغهاي بالصين. وأمضى العامين التاليين هناك، حيث عمل مراسلاً صحفياً في صحفتي «تشاينا بريس» و«شغهاي إيفينج بوست».

ربما أشبع العيش في الصين شهته للسفر في بادئ الأمر. وفي أوائل عام ١٩٣٣، عاد لويس إلى نيويورك، وتولى وظيفة في صحيفة «نيويورك وورلد تيليغرام»، ثم انتقل إلى صحيفة «نيويورك جورنال أميركان»، وتزوج، واستأجر شقة في مانهاتن، وهي واحدة من المرات القليلة التي احتفظ فيها بنفس العنوان لمدة تزيد على عام. وقد وفرت له الفترة التي قضاهها في الصين مادة لمشروعاته الأدبية الأولى، التي كانت قصيرة، لكنها مليئة بالإثارة. على سبيل المثال، تحكي قصة «صورة التبت» عن صاندي الثروات الذين أجبروا على التخلي عن فراء ثعالب فضية بقيمة مليون دولار في صحراء جوبي، عندما هاجمهم قطع من الكلاب الأكلة للبيش. ظهرت هذه القصة في مجلة «أرجوسي» في نوفمبر عام ١٩٣٥، وتبعها قصص أخرى مليئة بالصور النمطية للصينيين الغامضين والأشراق بعض الشيء. كما جرّب أيضاً الكتابة للمسرح، وتعاون مع مراسل صحفي سابق، هو لويس وينزنيكورن، في مسرحية «اختر سُمك». في المسرحية، يستخرج مجموعة من المحتالين التافهين بوليصات تأمين على حياة منتشر منبوذ، ثم يحاولون - من دون جدوى - قتله من خلال سلسلة من «الحوادث». افتتحت المسرحية للعرض السابق قبل عرضها في برودواي في أواخر يناير عام ١٩٣٦، قبل أن تُوقف بعد ستة عروض. وكان التفسير الوحيد الذي قدمه منتج المسرحية هو أنها في حاجة إلى «تعديلات»، وترك حقوقه في المسرحية تسقط بعد بضعة أشهر.

وعلى الرغم من أن لويس ادعى أنه كان سعيداً بوظيفته في صحيفة «جورنال أميركان»، فإنه يبدو أن بعض الاستياء من الأوضاع المربحة كان جزءاً من طبيعته. وكما قال لاحقاً لمجلة «نيوزويك»، جاءت فكرة روايته الأولى «سقوط جنتلمان» بينما كان يقف على سطح شقته في قرية جرينتش في إحدى الأمسيات في أواخر عام ١٩٣٦. نظر لويس إلى الشارع في الأسفل، وفكر فيما سيحدث إذا سقط: «كيف يمكن للرجل أن يسد تلك الفجوة الذهنية المشوشة بين الأمان الكائن تحت قدميه، وذلك العالم «هناك في الأسفل»؟». قرر أن يكتب قصة ليكتشف ذلك. ولتأكيد تلك الفجوة الذهنية، اختار كموضوع لتجربته ليس مراسلاً متجولاً مثله، بل رجلاً يسد كيانه ذاته الأمان.

يرتبط هنري بريستون ستانديش، الجنتلمان في «سقوط جنتلمان»، ارتباطاً وثيقاً بحجر الأساس للمؤسسة الأمريكية، بقدر ما يمكن لأي رجل أن يكون. ويستحضر اسم عائلته اسم الضابط الإنجليزي الذي أبحر مع المهاجرين الأوائل على متن سفينة ماي فلاور، وهو موضوع قصيدة هنري وادزورث لونجفيلو، «مغازلة مايلز ستانديش»، التي حفظتها أجيال من تلاميذ المدارس. وهو خريج جامعة بيل، وشريك في بنك استثماري في وول ستريت، وعضو في النادي المالي والنادي الرياضي ونادي الجولف في وبيونيك، وصاحب شقة مريحة في الجانب الغربي العلوي في نيويورك، وزوج مخلص، وأب محب لطفلين، وبهذا يُعد ستانديش مثلاً للمواطن الصالح. «كان يشرب باعتدال، ويدخن باعتدال، ويضامع زوجته باعتدال. في الحقيقة، كان ستانديش من أكثر الرجال إثارة للضحك في العالم». وعندما يفكر ستانديش في احتمالية وجود عالم من دونه، يفكر بأسف في أن مدينة نيويورك ستمتلئ «بالفراغات التي لا يمكن أن يملأها أحد سوى هنري بريستون ستانديش الحقيقي».

ومع ذلك، مثل لويس، شعر ستانديش برغبة ملحة لا تقاوم في المغادرة، والعودة على شيء يفقده في المنزل. في حالة ستانديش، ألح عليه هذا الدافع فجأة. ففي أحد الأيام، وهو جالس في مكتبه، «هاجمه فجأة اضطراب غامض». شعر بالحاجة إلى النهوض، ومغادرة مكتبه، والقيام بنزهة على طول الواجهة البحرية لمانهاتن في حديقة باتري. وبينما كان يتأمل المياه، «تمكنت منه قوى خارجية عن إرادته وهزته من كتفيه، وهست إليه من بين أسنانها: «يجب أن ترحل من هنا، يجب أن ترحل!»».

لم يفهم ستانديش هذا الدافع. «لم يكن هناك أي سبب منطقي يدعو إلى الرحيل، إذ كان كل شيء في مكانه الصحيح في حياته». وفي الوقت نفسه، تخبره غرائزه بأنه «لن يتمكن من التنفس بحرية مرة أخرى ما لم يذهب بعيداً». ولم يكن ستانديش أول شخصية في الأدب الأمريكي تشعر بهذه الرغبة في الهروب. فقبل خمسين عاماً من «سقوط جنتلمان»، انطلق هكليري فين في رواية مارك توين إلى أراضي الهنود «لأن العمة سالي سوف تتبناي وستجعلني متحزراً، وأنا لا أستطيع تحمّل ذلك». ربما كان ما أسماه لويس «الأمان» مجرد اسم آخر لـ«الحضارة» عند هكليري فين.

لكن عندما رأى ستانديش آخر مشهد لنويويورك يغيب في الأفق وهو يبحر بعيداً في رحلة بحرية عبر قناة بنما إلى كاليفورنيا، شعر بتلاشي «كل إرهابه وكل شكوكه ومخاوفه بشكل سحري في البحر». وفي كاليفورنيا، استمر الشعور بالارتياح. اكتشف ستانديش «متعة معينة في الأشياء الآن لم يكن قد اختبرها في منزله من قبل، إذ تكلفت كل أحاسيسه». لذا قرر الاستمرار والقيام برحلة بحرية أخرى، هذه المرة إلى هونولولو. وعندما اتصل ستانديش ليبلغ زوجته الخبر، توصلت إليه قائلة: «لماذا يا هنري؟»، فأجابها: «لا أعرف». وحتى يعد أن وصل إلى هاواي، أقر عودته، واستبدل بتكررة العودة إلى سان فرانسيسكو مكاناً على متن سفينة الشحن «أرابيلا»، وهي سفينة شحن تقوم برحلة بحرية ممتعة لمدة ثلاثة أسابيع من هونولولو إلى بنما.

ثم يبدأ لويس تجربته. في صباح أحد الأيام، وبينما كان معظم من على متن السفينة نائمين، وبينما لا تزال على بُعد عشرة أيام على الأقل، انزلق ستانديش على بقعة من الشحم في أثناء تجوله على سطح السفينة، وسقط من على متنها. ألقى لويس بطله بعيداً عن أمان الحياة المريحة في مدينة نيويورك قدر الإمكان، على بُعد ألفي ميل من بنما، وثلاثة آلاف ميل من هاواي، في طريق بحري غير مطروق تقريباً. وحتى هنا، على الرغم من ذلك، تمكنت التقاليد من الوصول إلى ستانديش والسيطرة عليه. فبعد ظهوره على سطح الماء، وبينما لا تزال هناك فرصة ليسمعه شخص ما على متن السفينة «أرابيلا»، وجد أن تربيته «حكمت عليه بأن يكون جنتمان»: «لم يكن آل ستانديش يصيرون، فقد عُثِرَت ثلاثة أجيال من الجنتمانات البوق في حجرة آل ستانديش الأولى إلى كمان رخم». يتردد ستانديش في الصراخ فيتجرع السفينة «أرابيلا» مبعثرة، وطاقها وراكبها الآخرون غافلون عن محتته. وتمر اثنتا عشرة ساعة أخرى قبل أن يتأكد غيابه، وفي مفارقة قاسية تتبأ بموت لويس نفسه، يستنتج البعض على متن السفينة أن حادث ستانديش كان في الواقع انتحاراً.

بدقة متناهية، يزيل لويس طبقات «الحضارة» بينما تمر الساعات، ويحاول بطله البقاء طاقياً في انتظار من ينقذه. يخلع ستانديش حذاءه، ثم يخلع ملابسه شيئاً فشيئاً، حتى يصبح عارياً، وقد أحرق الشمس عينيه وشففته. في البداية، يشعر بالحرج من جعل السفينة «أرابيلا» تستدير وتنقذه، ثم يشعر بالفخر بـ«مغامرته الهائلة» في البقاء على قيد الحياة حتى إنقذته، وأخيراً، عندما يدرك أنه لا يوجد أمل، يشعر بالندم. «ومع كل فكرة من هذه الأفكار شعر بوخز في قلبه الذي تحطم، وخز من الندم، لأنه لا يستطيع الاستمرار كغيره من الرجال في حوض تجارب جديدة استثنائية يوماً بعد يوم». تجارب استثنائية مثل أن قلبه «ظل ينبض خمساً وثلاثين سنة من دون أن يتوقف مرة واحدة»، وأنه لم يشعر بالجوع قط، وأنه نال كل ما كان يرغب فيه. في النهاية، استبقى رغبة واحدة فقط أن تشبع: أن يعيش.

عندما انتهى لويس من كتابة «سقوط جنتمان»، كان وضعه الخاص غير مستقر. فقد عاش بما يفوق إمكانياته، واقترض المال، وتأخر عن دفع الإيجار لأشهر عديدة. وقبل أسابيع فقط من نشر فاينكنج لرواية «سقوط جنتمان» في مايو عام ١٩٣٧، أعلن لويس إفلاسه بديون بلغت ٣١٠٠ دولار - أكثر من دخل عام كامل بالنسبة إلى صحفي - ولم يكن لديه أي أصول، باستثناء العائدات المحتملة من الكتاب. ولم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي وجد نفسه فيها مفلماً تماماً. بدأت مراجعات رواية «سقوط جنتمان» في الظهور بعد فترة وجيزة، أولاً في ٢٣ مايو في صحيفة «نيويورك تايمز»، وهي نفس الصحيفة التي ظهر فيها إشعار إفلاسه. وصف المراجع تشارلز بور الكتاب بأنه «ممتع» و«رحلة خيالية»، لكنه استشر نية لويس الضمنية: «يبدو أن ستانديش يخضع لتجربة، بدلاً من أن يخوض اختباراً».

ويبدو أن إيجاز الكتاب قد دفع العديد من المراجعين إلى اعتباره غير ذي أهمية كبيرة. كتبت ويليام روز بينيت في مجلة «ساترداي ريفيو»: «إنه كتاب جيد بما فيه الكفاية من نوعه، لكنه واحد من تلك القصص التي كان يمكن أن تكون تحفة فنية، وليست كذلك بأي حال من الأحوال». وحده أرنولد بالمر، الذي كتب في مجلة «بريتانيا وليف» مراجعته للطبعة البريطانية التي نشرها فيكتور جولانز، رأى أن طول الكتاب ميزة: «لقد روى بمهارة وكثافة غير عادية قصة كان تسعة وتسعون كتاباً من بين مائة كاتب سيفسدها بالتوسع إلى رواية كاملة، أو ضغطها لتلائم متطلبات محرر مجلة». من ناحية أخرى، فقد رأى إيفلين ووه في مقالته في مجلة «تايم اند تايد» أنها لم تكن قصيرة بما فيه الكفاية: «على الرغم من قصرها، فهي طويلة جداً. كان في إمكان رجل فرنسي أن يروي القصة في خمسين صفحة». وقد أصدرت دار فاينكنج طبعة ثانية، بينما لم تصدر جولانز طبعة ثانية.

أنقذت هوليوود لويس. ففي أغسطس ١٩٣٧، أعلنت صحيفة «هوليوود ريبورتر» أن شركة مترو جولدوين ماير قد تعاقبت مع لويس «ككاتب لمدة محددة»، أي كاتب في فريق العمل بعقد لمدة محددة، كانت تبلغ ستة أشهر عادة، براتب مجز آنذاك يبلغ ٢٥٠ دولاراً في الأسبوع. توجه لويس وزوجته جيتا وابنهما الرضيع مايكل إلى كاليفورنيا، ووصلوا في أوائل سبتمبر «في حالتنا البدائية الأصلية»، كما كتب لأخيه بن (على قرطاسية مترو جولدوين ماير). وبحلول عيد الميلاد، استطاع لويس أن يخبره بأنه منشغل بالعمل على إعادة إنتاج الفيلم الصامت «أخير المارينز»، وتوقع «البقاء هنا فترة طويلة».

لكنه كان لا يزال يكافح لسداد ديونه. كتب إلى بن قائلاً: «إن الناس يضغطون عليّ من أجل الديون، ويجعلون حياتي بائسة بتهديهم بمقاضاتي والحجز على راتي». واشتكى قائلاً: «كل الكتاب الآخرين يعيشون في منازل كبيرة ويقومون الحفلات، ونحن نعيش في كوخ». أوقفت شركة مترو جولدوين ماير إعادة إنتاج فيلم «أخير المارينز»، ولم يُمدد عقد لويس. لكنه تمكن من الحصول على وظيفة مع شركة آر كي أو، وتعاون مع إيان هانتر في فيلمي «مرفأ الصيادين» و«الهروب إلى الفردوس»، وهما فيلمان موسيقيان من أفلام الدرجة الثانية من بطولة الفتى المغني بوبي برين، وقد صدرا في عام ١٩٣٩، وكلاهما يتبع صيغة نمطية ويسهل نسبانه. وبحلول نهاية ذلك العام، استقال لويس من شركة آر كي أو، وعاد إلى مدينة نيويورك مع عرض عمل من وكالة إعلانات ج. والتر تومسون، وفي يده مخطوطة روايته الثانية.

تأججت مشاعر لويس المناهضة للحرب مع اندلاعها في أوروبا. في رواية «حملة الربيع»، يخلص بيتر وينستون، وهو شاب أمريكي عاطل عن العمل وغير سعيد في الحب ومعارض للمزاج الانعزالي في أمريكا، إلى أنه «لا مكان له في بلده»، ويسافر إلى إنجلترا للتطوع في الجيش البريطاني. لكن عندما يكمل تدريبه وينتقل إلى فرنسا كجزء من قوات الحملة البريطانية، يجد أنه لا يوجد شيء يفعله في أشهر الجمود المعروفة باسم الحرب الزائفة. لذا يقرر تقديم احتجاج صغير عن طريق التسلل إلى المنطقة العازلة بين خطي ماجينو وسيجفريد، وزرع عبوة من بذور البازلاء الحلوة. لكن بينما كان وينستون جاثماً هناك يزرع بذوره في الساعات الأولى من صباح أحد الأيام، وصلت الحرب الزائفة إلى نهاية مفاجئة وعنيفة، فوجد نفسه عالقاً بين الجانبين، أعزل من السلاح وبفرصة ضئيلة للنجاة. مثل ستانديش في لحظاته الأخيرة، فقد وينستون كل أمل: «لم يكن هناك من يريده في أي مكان». ثم تسقط قذيفة، ويختفي وينستون.

لم يكن من الممكن أن يكون توقيت لويس أسوأ من ذلك. نُشرت رواية «حملة الربيع» في أواخر أبريل عام ١٩٤٠. وبعد أسبوعين، بدأت المدرعات الألمانية في الزحف على بلجيكا وفرنسا وهولندا. وبحلول نهاية يونيو، كانت فرنسا قد استسلمت. وخلصت مجلة «ساترداي ريفيو» إلى أن «هذه الرواية القصيرة، من أجل مصلحتها، كان يجب أن تصدر قبل وقت طويل من بداية الحملة العسكرية الفعلية في الربيع». وقد تنبأ رالف إليسون في مراجعته في مجلة «نيو ماسيز» بأنه «لن يُقال عنها الكثير هذه الأيام، في الصحافة الرأسمالية». وقد كان محقاً، حيث غرق الكتاب من دون أن يترك أثراً.

ومع ذلك، كان لويس لا يزال لديه آمال في مسيرته المهنية بوصفه روائياً. واقتناعاً منه بأن ما كان يعوقه هو محاولة الكتابة في أثناء العمل في وظيفة بدوام كامل، لصطح عائلته، التي صارت تضم طفلة رضية، جين، إلى منطقة هادنة في برويفينستون في ماساتشوستس، وهناك كتب روايته الثالثة. تدور أحداثها حول سكان منزل به غرف للإيجار في قرية جريننتش عشية عيد الميلاد، وتعتبر «تهاني العيد» رسالة حب وكراهية لمدينة نيويورك. سمح لويس لنفسه بالكتابة بأسلوب نثري أكثر ثراءً، فالكتاب مليء بالأوصاف النابضة بالحياة:

«دبت الحياة ببطء في أصوات المدينة مع حركة السيارات، وانطلاق الأبواق، وإغلاق الأبواب، وهدير القطارات تحت الأرض، وصرير الآلات ودورانها، ودبيب الأقدام على الأرض، وصياح الرُضع، وصراخ الأطفال، ونداءات الباعة الجائلين على بضائعهم. كما دبت الحياة في روائح المدينة على مهل، مع تحضير القهوة، وقلبي لحم الخنزير المقدد، وتخمر القمامة، وتلاطم المواد الكيميائية في المراحل».

لكن على الرغم من حيوية كتابة لويس، فإن موضوعه كان كئيبيًا مرة أخرى: «مشكلة الوحدة في مدينة يبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين نسمة». أحد السكان بالمنزل هو لاجئ ألماني ليس لديه أي أصدقاء أو معارف في بلده الجديد، والآخر مدمن كحوليات مفعم بالمرارة، والثالثة امرأة عجوز مات كل أفراد عائلتها. وعلى الرغم من أن بعض السكان يجتمعون معًا ليلقوا مجتمعًا من نوع ما، لبضع ساعات على الأقل، فإن لويس يرفض النهاية السعيدة للجميع. فبينما يجتمع جيرانه في حفلة مرتجلة لعيد الميلاد، يجد أحد السكان، السيد كيتريدج، الذي بدأ اليوم مقتنعًا بأنه «لم يُعد هناك أي جدوى من الحياة بعد الآن»، أن لا شيء خلال اليوم قد غير رأيه. لذا يتسلل بهدوء إلى حديقة واشنطن سكوير حاملاً بنقوية وينتحر، وحيذًا وغير مرئي: «حول جميع أرجاء الحديقة التي تعصف بها الرياح، في جميع البنايات السكنية والمنازل المبنية من الحجر البني والمباني الجامعية، لم تفتح نافذة واحدة ولم يطل شخص واحد». وبعد أقل من عشر سنوات تُوفي لويس نفسه وحيذًا وغير مرئي في فندق إيرل، على الجانب الآخر من الشارع المقابل للحديقة مباشرة.

نُشرت رواية «تهاني العيد» في سبتمبر ١٩٤١، وحظيت بمراجعات إيجابية، لكن ليست رائعة. وصفها مراجع صحيفة «نيويورك تايمز» بأنها «قصة تنبض بالمشاعر تجاه شخصية نيويورك المعقدة والشاملة». ولم تعجب صحيفة «أميريكان ميركوري» بتغيير لويس لأسلوبه: «إنها رواية مبالغ فيها في بعض المواضع، وتبالغ في إسهاب وجهة نظرها، ومع ذلك فهي تستحوذ على اهتمام القارئ». مرة أخرى، كان لويس ضحية لسوء التوقيت، فبعد الهجوم الياباني على بيرل هاربور في السابع من ديسمبر، كان عدد قليل من الأمريكيين في حالة مزاجية تسمح بشراء كتب عن عيد الميلاد. وتذكر السيرة الذاتية القصيرة على ظهر غلاف «تهاني العيد» أن المؤلف وعائلته قد عادوا إلى نيويورك، وأن «السيد لويس يتوقع هذه المرة أن يبقى في موطنه إلى الأبد». لكن الأمور لم تسر على هذا النحو.

بعد العمل في صحيفة «نيويورك هيرالد تريبيون» مراسلاً صحفياً لمدة عام تقريباً، حاول لويس مرة أخرى أن يشق طريقه ككاتب مستقل، لكن الحظ لم يحالفه. وكما روى القصة لاحقاً فريد بيك، مراسل السينما في صحيفة «لوس أنجلوس تايمز»، بحلول أواخر عام ١٩٤٢، أصبح لويس «رجلاً ضئيلاً حزيناً يرتجف في شوارع نيويورك». كانت هناك قصة قصيرة كتبها لويس بعنوان «كوليجان ذو الوجهين» وقد رفضتها ٣٣ مجلة، وأحس بالقلق من أن عائلته «ستتناول السلامي في عشاء عيد الميلاد». وعلى حد تعبير بيك، «تمنى هيربي أن يأتي شخص يعرفه حتى يتمكن من اقتراض بعض المال». لكن بدلاً من ذلك، عاد لويس إلى المنزل ليجد خطاب قبول من مجلة «ستوري» وشيكا بمبلغ ٥٠ دولاراً، وهو ما يكفي لعيد ميلاد سخي، إلى جانب شهر أو شهرين آخرين. وبعد فترة وجيزة، ذكرت مجلة «فاراي تي» أن شركة فوكس للقرن العشرين اشترت الحقوق السينمائية للقصة، ووظفت لويس كاتباً مقابل ٥٠٠ دولار في الأسبوع، فعاد لويس وعائلته إلى لوس أنجلوس.

وعلى الرغم من التحول في وضعه المالي، فإن لويس لم يكن راضياً قط في هوليوود. كتب لأخيه بن في يوليو ١٩٤٣: «الحياة مملّة إلى حدّ ما هنا. من غير الواقعي على الإطلاق الذهاب إلى الاستوديو كل يوم وكتابة سيناريوهات عن أشخاص وهميين، بينما الناس الحقيقيون يقطع بعضهم رقاب بعض بحماسة في كل مكان». وفي نوفمبر اشتكى قائلاً: «أنظر حولي وأرى الأشياء التي يشتريها النجاح هنا، ولا يعجبني أيّ منها. تمتلئ أحواض السباحة بالذباب الميت والضيوف غير المدعوين، وتمتلئ المنازل الكبيرة بالذباب الحي والضيوف غير المدعوين». كتب لويس أنه قرر قبول عرض عمل مع الممثل الكوميدي الإذاعي فريد ألان والعودة مع العائلة إلى نيويورك. وقد أعلن فريد بيك الخبر في صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» مع تعليق مارك: «لدى فريد ألان كاتب جديد، جديد تماماً، وأنا أتساءل فقط عما إذا كان الجميع سيصيرون سعداء الآن بعد أن حصلوا على ما أرادوه».

كانت الإجابة بالنفي. ظن لويس أنه سيحل محل عدد من الكُتّاب الذين توقعوا أنهم على وشك التجنيد، لكنهم لم يفعلوا. وبعد ثمانية أسابيع من وجوده مع ألان في برنامجه، قرر لويس: «لقد سئمت من أخذ المال تحت ادعاءات كاذبة»، وعاد إلى هوليوود. استمر لويس في العمل مع شركة فوكس للقرن العشرين التي أصدرت النسخة السينمائية من قصة لويس، «دون جوان كوليجان» في يونيو ١٩٤٥. وعلى الرغم من قلة اهتمامه بالعمل، فإن لويس كان في حاجة ماسة إلى أموال الاستوديو. وفي أوائل عام ١٩٤٥، اشتكى إلى بن قائلاً: «لقد علّق مكتب الإيرادات الداخلية رتبتي لإجباري على سداد دين ضريبي قديم للتعلم سام، مما قلل من منعتي ومالي، وقضى عملياً (للاشهر القليلة المقبلة) على كل الخطط التي كانت لدينا لنرسل إليك هديتنا بمناسبة زفافك».

جاءت استراحة لويس الوحيدة من عناء الاستوديو في مايو عام ١٩٤٥، عندما أرسل هو والدتون ترومبو وأربعة كُتّاب آخرين في جولة لمدة ستة أسابيع في مناطق القتال في جنوب غرب المحيط الهادئ بدعوة من الجنرال هنري «هاب» أرنولد، رئيس سلاح الجو بالجيش الأمريكي. وكتب من جوام في ١٦ يونيو عام ١٩٤٥: «إنني أرى الحرب حقاً في هذه الرحلة البالغ طولها ١٦٠٠٠ ميل، الطائرات والأسطول والمشاة وكل شيء آخر تقريباً».

انتهت الحرب بعد شهرين فقط من عودة لويس من الرحلة، وبإع المزيد من القصص: قصة «يوم النصر في لاس فيجاس» إلى شركة آر كي أو، وقصة «حكاية الجادة الخامسة» التي شارك لويس في كتابتها مع فريدريك ستيفاني إلى شركة أفلام ليبرتي. صُورت القصة تحت عنوان «حدث في الجادة الخامسة»، وحصلت على ترشيحات لجائزة الأوسكار للكاتبين في عام ١٩٤٧. لكن بحلول ذلك الوقت، بدأت حياة لويس في الانهيار، حيث شرع يفرط في الشرب، كما كان يتناول الباربيتورات لمساعدته على النوم. ويتذكر ابنه مايكل رؤية والده «عاريًا وفي غيبوبة تامة على كرسي» في هذا الوقت تقريباً. «أخبرتني أمي بأن السبب هو الكحول وعقار السيكونال». بدأت جيتا لويس العمل في الاستوديوهات ككاتبة بنفسها. وكما يتذكر مايكل، «كان والداً الحقيقيان لي ولشقيقتي خلال هذا الوقت» هما الخادمتان المتفرغتان اللتين استأجرهما والدها. وانفصل الزوجان في يوليو عام ١٩٤٧.

كانت حياة لويس المهنية تتداعى أيضاً. في يناير من عام ١٩٤٧، أصبح عضواً في هيئة تحرير مجلة «سكرين رايتز»، وهي مجلة نقابة كُتّاب الشاشة. ومن سوء الحظ، كانت النقابة على وشك أن تصبح محور تحقيقات مكتب التحقيقات الفدرالي بخصوص التسلل الشيوعي المحتمل لصناعة الأفلام السينمائية. ومن خلال العمل في دعم لجنة الأنشطة غير الأمريكية في مجلس النواب الأمريكي، أجرى مكتب التحقيقات الفدرالي مقابلات مع عشرات الشهود، وجمع آلاف الوثائق المتعلقة بالأنشطة السياسية الليبرالية في هوليوود. وقد تعرف أحد مخبري مكتب التحقيقات الفدرالي على لويس بوصفه عضواً في الحزب الشيوعي الأمريكي.

سواء كان هذا الادعاء صحيحاً أم لا، فقد انضم لويس إلى الجانب الخاسر. مرة أخرى، كان توقيته سيئاً للغاية. حيث انضم إلى أكثر من ١٠٠ كاتب وممثل ومخرج وموسيقي وقعا على إعلان على صفحة كاملة احتجاجاً على جلسات الاستماع التي عقدها لجنة مجلس النواب، الأمر الذي زاد من الشكوك حول انتمائه السياسي. وبعد شهر، وجهت تهمة ازدراء الكونجرس إلى دالتون ترومبو وتسعة أعضاء آخرين من نقابة كتاب الشاشة لرفضهم الإدلاء بشهادتهم أمام اللجنة. واجتمعت مجموعة من أقوى المديرين التنفيذيين في الاستوديوهات بنيويورك في ديسمبر عام ١٩٤٧، وأصدروا بياناً تعهدوا فيه: «إن نوظف عن عمد شيوعياً أو عضواً في أي حزب أو جماعة تدعو إلى الإطاحة بحكومة الولايات المتحدة». وبدأت ممارسة وضع القوائم السوداء. قال لويس لأحد المراسلين مازحاً: «أحواض السباحة تجف في جميع أنحاء هوليوود، ولا أعتقد أنني سأراها ممثلة في عهد جيلي». لكنه لم يأخذ هذه التجربة باستخفاف، فقد عانى انهياراً عصبيًا في منتصف عام ١٩٤٨، ولم يتمكن من العمل لمدة عام.

في سبتمبر ١٩٤٩، عاد إلى مدينة نيويورك للمرة الأخيرة، وحده، حيث اختارت زوجته جيتا البقاء في هوليوود. عمل كاتباً صحفياً في صحيفة «نيويورك ميرور»، وكتب إلى بن من نيويورك في أكتوبر ١٩٤٩: «لقد استمتعت بنفسى للغاية، وقوّمت سلوكي تماماً»، وأضاف أنه باع العديد من قصصه لتوفير نفقات جيتا والطفلين. يتذكر مايكل لويس قائلاً: «حاولنا نحن الأربعة العيش معاً مرة أخرى ك أسرة واحدة» في نيويورك في عيد الميلاد عام ١٩٤٩ تقريباً، لكن ربما وصلت الزيجة إلى نقطة الانهيار. عادت جيتا مع مايكل وجين إلى هوليوود، وانتقلوا للعيش مع تانيا نائل، زوجة المخرج المُدراج على القائمة السوداء فرانك تاتل، الذي ذهب إلى فرنسا بحثاً عن عمل.

في أبريل ١٩٥٠، أشهر لويس إفلاسه، مستشهداً بديون وضرائب دخل غير مدفوعة تزيد قيمتها على ٢٦٠٠٠ دولار أمريكي. انتقل إلى غرفة في فندق إيرل في قرية جرينتش، وعلى الرغم من أن فندق إيرل كان يعتبر من بين أفضل الفنادق السكنية في المدينة، فإنه في عام ١٩٥٠، كان فندق إيرل، على حد تعبير الشاعر ديبلان

توماس، الذي أقام هناك في الوقت نفسه تقريباً مع لويس، «حظيرة خنازير». ثم انتقل لويس من صحيفة «ميرور» إلى مجلة «تايم»، لكنه كان لا يزال مقلماً. واعتذر إلى بن عن عدم قدرته على المساعدة في دفع فواتير والدهما من عملية جراحية في البروستاتا.

في أواخر سبتمبر، ترك مجلة «تايم»، ومن غير الواضح ما إذا كان ذلك طوعاً أم لا. وبعد ثلاثة أسابيع، عُثِر عليه ميتاً في غرفته بالفندق. وعلى الرغم من أن شهادة وفاته ذكرت أن سبب الوفاة كان نوبة قلبية، فإن بعض معارفه اعتقدوا أن لويس قد انتحر، وهو الأمر الذي دفع الدتون ترومبو للكاتبية إلى زوجته قائلاً: «إنه أمر محزن، لكنه ليس أكثر مما كان متوقعاً». كتب لويس في «سقوط جنتللمان» أن «الغذاء الوحيد الذي يمكن أن يقتات عليه الغريق هو الأمل في أن يُنقذ». ربما فقد هو نفسه الأمل في أن يُنقذ.

لم يترك لأرملته سوى القليل الذي لا يتعدى احتمال تحقيق مبيعات مستقبلية لكتابات، التي كان عددها قليلاً. وفي ديسمبر ١٩٥٠، حُولت إحدى قصصه المبكرة، «مفاجأة للأولاد»، إلى مسلسل تلفزيوني بثته شبكة سي بي إس بعنوان «الخطر». وبعد بضع سنوات، اشترى أحد المنتجين حقوق قصة لويس «العروس ترتدي بيجاما»، لكن لم يُنتج الفيلم قط. وأخيراً، في عام ١٩٥٩، باعت جيتا، التي تزوجت مرة أخرى، روايته غير المكتملة «الظلام الفضي» إلى دار نشر «بيبراميد بوكس»، التي تصدر كتباً ذات غلاف ورقي. وعلى الرغم من التثاء المنشور على الغلاف، الذي كتبه الروائي بود شولبرج معلناً أنها «رواية مبتكرة ومفنتة حقاً»، فإن الرواية لم تحظ بأي مراجعات، ولم يُعد إصدارها قط. ولم يتبق إلا عدد قليل من النسخ في المكتبات في جميع أنحاء العالم.

ربما كانت رواية «الظلام الفضي» بمنزلة نهاية قصة لويس. تعرضت أعماله للتجاهل في دراسات الروايات الأمريكية، وقد أبقت أعماله السينمائية وحدها اسمه حياً في الكتب المرجعية من حين إلى حين. توفيت ابنته جين في عام ١٩٨٥ بسبب مضاعفات مرتبطة بمرض السكري، وتوفي شقيقها في أواخر التسعينيات، وأرملته جيتا في عام ٢٠٠١. ولم يبق من يتذكر لويس سوى مايكل، مع حفنة من رسائل والده وصفحة وحيدة من يومياته.

في ربيع عام ٢٠٠٩، عثرتُ على مراجعة لـ«سقوط جنتللمان» في أثناء تصفحي لأرشيف مجلة «تايم». تساءل المراجعة: «كيف سيكون شعورك عند السقوط من سفينة في منتصف المحيط الهادي؟ يحكي هيربرت كلايد لويس عن هذا الشعور بهدوء شديد كما لو كان قد سقط من على متن السفينة بنفسه». كنت أبحث عن الكتب المنسية منذ فترة طويلة، التي تتمتع بصفات فريدة، وبدا لي أن «سقوط جنتللمان» مرشح مثالي. وجدت نسخة من الرواية وقرأتها، ونشرت مراجعة حماسية قصيرة. ومن دون أن أطلع على مقال مجلة «نيوزويك» الذي يصف فكرة لويس الأصلية، أشرت إلى الكتاب بوصفه تجربة:

«ما يهم ليس نجاحها أو فشلها، بل مجرد رؤية ما يحدث. يضع لويس بطله في خضم التجربة، ويراقبه، وتحمل هذه الرواية ملاحظاته. قلة من العلماء كان سيمكنهم تسجيل النتائج بمثل هذه اللسمة الأنيفة والخفيفة. وقد قيل إن الفنان الحقيقي يعرف متى يتوقف... ويفعل ذلك بالفعل. وبهذا المعيار وحده، يثبت هيربرت كلايد لويس أنه فنان حقيقي في رواية «سقوط جنتللمان»».

بعد بضعة أشهر، تلقيت بريداً إلكترونيًا من ديجو دونوفريو، الذي يعمل محرراً في لا بيسيتا أكليترا، وهي دار صغيرة للنشر باللغة الإسبانية في بوينس آيرس. كتب لي قائلاً: «أود أن أسألك: أي كتاب مَهْمَل تتصحنى بنشره؟». لم أكن على دراية بجمهور دار لا بيسيتا، لذلك ترددت في تقديم العديد من الاقتراحات، لكنني أجبت: «إذا كان عليّ أن أختار كتاباً من دون كثير من التفكير، يمكن أن يلقي قبولاً لدى مجموعة واسعة من القراء، فأعتقد أنني سأختار رواية «سقوط جنتللمان» لهربرت كلايد لويس. من المفترض أن يكون من السهل نسبياً ترجمتها، وبها خط سردي قوي لا بد أن يجذب معظم القراء بسرعة كبيرة». شكرني ديجو، وقال إنه سيطلب نسخة.

أعجب ديجو ورئيس تحريره لويس شينباروني بالكتاب. وفي مايو ٢٠١٠، تعاقدا على ترجمة الكتاب وحددا موعداً لنشره، وكان العنوان الإسباني هو «الجنتلان الذي سقط في البحر». كتب دونوفريو لاحقاً أن التحدي المتمثل في نشر كتاب مَهْمَل بلغة أخرى هو تحدٍّ كبير «لأنه لا أحد يعرف المؤلف، ولا حتى الكتاب الذي لا يعرفه أحد في لغته الأم... والأداة الوحيدة التي لديك لبيع الكتاب هي أنه يجب أن يكون استثنائياً في حد ذاته».

ووفقاً لهذا المعيار، كان أداء كتاب «الجنتلان الذي سقط في البحر» جيداً بشكل استثنائي، حيث كانت المراجعات المبكرة للرواية حماسية باستمرار. أعلن أليخاندرو فرياس في صحيفة «إل سول دي ميندوزا»: «بسيطة ومتقنة، هكذا فقط، بكل بساطة». ووصف ناقد آخر الكتاب بأنه «لؤلؤة صغيرة». استمر الكتاب في الحصول على إشادة النقاد مع انتشار قرائه خارج الأرجنتين. وقد أشاد أحد النقاد البارزين في إسبانيا، إنجاسيو إيتشيفاريا، بالكتاب في عموده الشهري في صحيفة «إل كولتورال»، وفي عام ٢٠١٩، أوصى به تقرير على شبكة سي إن إن تشيلي: «بسلاسة متقنة، ينقل هيربرت كلايد لويس القصة إلى بُعد فلسفي». وذكر دونوفريو أن «الجنتلان الذي سقط في البحر» هو «الكتاب الذي حظي بأكثر قدر من التثاء بالإجماع من دار النشر بأكملها، التي تضم الآن أكثر من ٩٠ كتاباً».

وفي سبتمبر ٢٠٢٠، نشرت مطبعة أوتورسدومين، وهي مطبعة صغيرة مقرها في أمستردام، ترجمة هولندية بعنوان «في البحر». وقد جاءت هذه الطبعة باقتراح من الروائية الهولندية بولين فان دي فين، التي عثرت على «سقوط جنتلان» في صندوق من الكتب القديمة ومناض السجائر التي تركها عم بعيد. وكما كتبت: «لقد قرأته من دون انقطاع من الغلاف إلى الغلاف، وأعجبت باللغة البسيطة والصور القوية والإطار العالمي للقصة المؤثرة». بالنسبة إلى فان دي فين، تكمن قوة الكتاب في مخاطبته للشعور المتناقص «بالوحدة المشتركة». وهو ينتمي، في رأيها، إلى «نفس قائمة الشرف» التي تنتمي إليها رواية «موت إيفان إيليتش» لليو تولستوي، وهي رواية قصيرة أخرى عن رجل أعمال ثري يواجه موته الوشيك: «إنها تحفة وجودية».

والآن، تعيد دار بويلر هاوس بريس تقديم هذه «اللؤلؤة الصغيرة» لهربرت كلايد لويس إلى القراء الإنجليز، مدشنة بذلك سلسلة «الكتب المُستعادة»، وهي سلسلتها الجديدة التي تهدف إلى استعادة أعمال الكتاب المَهْمَلين منذ فترة طويلة، وتقديمها لجمهور اليوم. يذكرنا إنقاذ كتاب «سقوط جنتلان» بضرورة البحث باستمرار عن كلمات أولئك الكتاب الذين سقطوا - بسبب المصاعب أو سوء التوقيت أو مجرد المصادفة - من التاريخ الأدبي، وأصبحوا في طي النسيان. وإذا ما حرصنا على الإصغاء إليهم، فسند أن لا يزال لديهم ما يقولونه لنا.

ما زلت تبحث عن الأشخاص المفقودين - ابحت بلا هوادة.

«لقد ماتوا» ليس تعبيراً يدخل في بنية الحياة.

حيث انتموا من قبل - لا، بل حيث ينتمون الآن، أعد إحياءهم،

غير عابئ ما إذا أشاح من لا يزالون على قيد الحياة، بلا مبالاة.

...

أرواح الموتى هي روح اللغة:

تسمعهم يتأججون داخل تلك الفكرة المنطوقة.

من «الاستماع إلى الأشخاص المفقودين»، لدينيس رايلي

من كتاب «قل شيئاً ما» (لندن: بيكادور، ٢٠١٦).

المؤلف

وُلِدَ هيربِرت كلَايد لويِس في نيويُورك عام ١٩٠٩. وبعد أن عمل مراسلاً في شنغهاي بالصين، عاد إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٣، وبدأ كتابة الروايات في أثناء عمله مراسلاً لصحيفة «نيويُورك جورنال». في عام ١٩٣٧، نشر روايته الأولى: «سقوط جنتمان». ونشر بعدها روايتين أخريين، ثم انتقل إلى هوليوود للعمل في شركة فوكس للقرن العشرين. ورُشِحَ لجائزة الأوسكار عن قصته لفيلم «حدث في الجادة الخامسة» عام ١٩٤٧، ولكن أدرج بعد ذلك على القائمة السوداء لأنشطته السياسية، فعاد إلى نيويُورك عام ١٩٤٩، وعمل محرراً في مجلة «تايم»، وتوفي بنوبة قلبية عام ١٩٥٠.

المشاركين

جورج سيرنثس (التقديم): شاعر. فازت العديد من كتبه الشعرية بجوائز، بما في ذلك جائزة ت. س. إليوت (٢٠٠٤). وحصلت ترجمته لكتاب «ساتانتانجو»، للكاتب المجري لاسلو كراسناهوركاي، على جائزة أفضل كتاب مترجم في الولايات المتحدة. وهو أيضاً مترجم شاندر ماراي وماجدا سابو. فاز كتابه «المصور في السادسة عشرة» (٢٠١٩)، وهو مذكرات عن والدته، بجائزة جيمس تيت بلاك لعام ٢٠٢٠.

براد بيجلو (الكلمة الختامية): محرر موقع The Neglected Books Page على الإنترنت.

المتريمة

إيناس التركي مترجمة مصرية. تخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

ترجمت لدار الكرمة كتاب «عندما تحب النساء أكثر مما ينبغي: أن تعيش في انتظار أن يتغير» لروبين نورود، والروايات: «خلف هذه الأبواب» لروث وير، و«جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس» لماري أن شيفر وأني باروز، و«المكتبة المتقلبة» لكريستوفر مورلي، و«أبريل الساحر» لإليزابيث فون أرني، و«بدافع القتل» لانتوني هورويتز، و«لا تكذب أبداً» لفريدا مكفادن، و«ريبيكا» لدافني دو موربيه، و«مكتبة الكلمات المفقودة» لستيفاني باتلاند.

ترجمات الكرامة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢. سالياتبيرًا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجيرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الإوزة البرية - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. ه. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.
١٠. الوعد - فريدرش دورنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١. طيف ألكندر ولف - جايو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.
١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.
١٦. ملحمة أسرة فورساي: صاحب الملك - جون جالزوردي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دو هاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.
١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٢٢. البحيرة السوداء - هيل هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيلبيست إنج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٢٥. مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.
٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامسي.
٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.
٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٣٢. الحرب والترينتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.
٣٣. سولاريس - ستانيسواف لم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.
٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.

٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.
٣٦. خلف هذه الأبواب - روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: ايناس التركي.
٣٧. احتضان - كلير كيجن. ترجمتها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٣٨. اترك العالم خلفك - رمان علم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٩. بندقيّة صيد - ياسوشي اينويه. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٤٠. لن نقدم القهوة لسبينوزا - أليتشه كابالي. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤١. سابقى هنا - ماركو بالزانو. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤٢. نادي القتال - تشاك بولانيك. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٤٣. ديرمافوريا - كريج كليفنجر. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٤٤. المولود من ذي قبل - خوان خوسيه ساير. ترجمها عن الإسبانية: محمد الفولي.
٤٥. ثلاثية - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٤٦. ملحمة أنيت - أنه فيبر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٤٧. الفجيرة - جني إربنيك. ترجمها عن الألمانية: نبيل الحفار.
٤٨. الواقعون - كارلوس مانويل ألباريس. ترجمها عن الإسبانية: أحمد محسن.
٤٩. مسيو إبراهيم وزهور القرآن - إريك-إيمانويل شميت. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٥٠. جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس - ماري آن شيفر وآني باروز. ترجمتها عن الإنجليزية: ايناس التركي.
٥١. سدهارتا: قصيدة هندية - هرمان هسه. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٥٢. محادثة ليلية - ساشا ناسيبي. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٥٣. أحد الرجال - كينتشيرو هيرانو. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٥٤. المكتبة المتقلبة - كريستوفر مورلي. ترجمتها عن الإنجليزية: ايناس التركي.
٥٥. القفزة - سيمونه لابرث. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٥٦. الميراث والوصية - فيجديس يوت. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وسها السباعي.
٥٧. ثورة القمر - أندريا كاميليري. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٥٨. لا تكذب أبداً - فريدا مكفادن. ترجمتها عن الإنجليزية: ايناس التركي.
٥٩. أبريل الساحر - إليزابيث فون أرنيش. ترجمتها عن الإنجليزية: ايناس التركي.
٦٠. أوهام العقل - برنلف. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٦١. بدافع القتل - أنتوني هورويتز. ترجمتها عن الإنجليزية: ايناس التركي.
٦٢. صمت الحملان - توماس هاريس. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٦٣. الشطرنج - شتيفان تسفايج. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٦٤. أمسية عند كلير - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هُفال يوسف.
٦٥. ريببكا - دافني دو موربيه. ترجمتها عن الإنجليزية: ايناس التركي.
٦٦. مكتبة الكلمات المفقودة - ستيفاني باتلاند. ترجمتها عن الإنجليزية: ايناس التركي.
٦٧. سقوط جنتمان - هربرت كلايد لويس. ترجمتها عن الإنجليزية: ايناس التركي.
٦٨. كل هذا غير صحيح - ليسا جويل. ترجمتها عن الإنجليزية: ايناس التركي.
٦٩. لم يتبق غيرها - رايلي ساجر. ترجمها عن الإنجليزية: عبد الرحيم يوسف.

- (١). الصابورة ثقلٌ يوضع على السفينة للحفاظ على توازنها، خصوصًا عندما تُفرغ من الحمولة. (المترجمة).
- (٢). بريدج المزايدة يُعد أول شكل معروف من أشكال لعبة البريدج. (المترجمة).
- (٣). انتشرت الحانات السرية خلال فترة حظر الكحوليات في الولايات المتحدة (١٩٢٠-١٩٣٣). ولتمييز الزبائن الحقيقيين من عملاء الحكومة السريين، لجأت هذه الحانات إلى استخدام بطاقات عضوية مطبوعة، وكان على الزبائن تقديمها ليتمكنوا من الدخول. (المترجمة).
- (٤). الممر الشمالي الغربي ممر بحري يربط المحيط الأطلسي بالمحيط الهادئ. (المترجمة).
- (٥). القائمة السوداء في هوليوود قائمة خاصة بصناعة الترفيه. وُضعت في منتصف القرن العشرين في الولايات المتحدة خلال السنوات الأولى من الحرب الباردة، حيث منعت الاستوديوهات الممثلين وكتّاب السيناريو والمخرجين والموسيقيين وغيرهم من محترفي الترفيه الأمريكيين من العمل، وأدرجوا في القائمة السوداء بناءً على عضويتهم، أو عضويتهم المزعومة، أو على تعاطفهم مع الحزب الشيوعي الأمريكي، أو على أساس رفضهم مساعدة تحقيقات الكونجرس في أنشطة الحزب. (المترجمة).